بيرسينَّا

الطبعة الأولى

١٤٤١ هـ ـ ٢٠٢٠م

تنبيه

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة المؤلف والناشر على هذا كتابة ومقدمًا.

رقم الإيداع

٢٠١٩/٢١٥٦٤

بطاقة فهرسة

كمال، شروق

بيرسينًا: رواية/ شروق كمال ط١ - القاهرة: دار غراب للنشر والتوزيع: ٢٠١٩

١٦٨ صفحة؛ ١٤ x ٢٠ سم

تدمك: ٥-١٨٨-٧٨٦-٩٧٧-٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

دار غراب للنشر والتوزيع

٨ عمارات الواحة - قطعة ١٠

مدينة نصر ـ القاهرة

ت: ٠١١١٠٣٧١٦٤٠

info@ghorabpublishing.com

تصميم الغلاف

رائد مجدي

التدقيق اللغوي

خالد رجب عواد

التنسيق الداخلي

أحمد البسيوني

بيرسينَّا

رواية

شروق كمال

إهداء

إلى الأشجار التي تحتفي بي عندما أمرُّ بجوارها، تمد أغصانها ملأى بالأزهار والود، تُعانق ابتسامتي، وتردُّ كُلَّ زهرةٍ من زهورها بابتسامة أحلى وأكثر دفئًا، وتنتظر حتى أقترب منها لتمطرني بعطر البوح..

إلى الأرواح التي تُشبه الأشجار في وُدِّها وزهرها، والتي لأجلها، أُلملم الحروف المتناثرة في عقلي، أكتبها بمِداد القلب وأُرسلها بطابع وريد، فأحْسِنوا ضيافتها، واحتفوا بها، فإنما هي مني، وأنا منها.

شروق

إهداء خاص

إلى عائلتي الرائعة التي أستند إليها، وأعرف أنها بجانبي فأبدع.. **معتز، مريم ويحيى**..

إلى أسرتي الجميلة.. **سماح وأميرة** وأبنائهم؛ **ندى وهنا وديما ومروان** والصغيرة **ليلى**..

شكر خاص إلى **ندى بهاء**.. التي أطلقت أجنحتي في هذه الرواية عندما تململت الكلمات من الأفكار..

إلى الصحبة الرائعة من الأصدقاء والصديقات الذين يحتفون بحروفي وينتظرون سطوري بفارغ الشوق..

وإلى الصديق الروائي والكاتب المسرحي **حسام قنديل**.. وشكر خاص على آرائه الأدبية القيمة ، ونصائحه الثمينة الدائمة

إلى الصديقات والأصدقاء في المعتكف الكتابي.. أصدقاء الشغف ورفقاء الحلم..

إليكم أهدي روايتي الأولى "بيرسينّا".

شروق

"أمان"

اهدِينِي..
قِطَعًا مِن أحلام
شَغَفًا يَحتَضِنُ سِنِينِي
فَيُنسِينِي
كَيفَ أنام

فتحت عينيها لتحتضن عينيه الدافئتين، ابتسامته تتوغل في روحها بودٍّ مُحبب، مَدَّ يده يداعب خصلات شعرها، ويزيحها عن وجهها المستنير لرؤيته، تعشق قَسَمات وجهه الحالمة، التي اعتادت أن تتأملها منذ كانا يلعبان معًا في طفولتهما، ولكن الأيام أضفت عليه وقارًا بعد انتسابه للعمل العسكري. كان طويلًا بحيث تغيب هي في صدره إذا احتضنها، وجهه مُشرب بسمرة

محببة، اكتسبها من عمله، وكتفاه العريضتان وقامته الممشوقة كانت دومًا مثار إعجابها في مراهقتهما، والآن مصدر راحة عندما تتعلق به، فيحملها بين ذراعيه كطفلته.

- هاتوحشيني.

همس بها وهو يتنفس ملامحها، قبَّلت بين عينيه ضاحكة، وألقت نفسها إلى أحضانه.

- بترتاح مننا في الكتيبة ع الأقل بتعرف تنام من غيرما لؤي وملك يرفصوا فيك.

جال ببصره في وجهي صغيريه اللذين اعتادا النوم في سرير والديهما دومًا في اليوم الأخير من إجازة والدهما قبل أن يعود إلى كتيبته، كان ماجد يراه تعويضًا بسيطًا عن غيابه لأسابيع تالية. لؤي في الخامسة من عمره، يبدو أطول من أقرانه، عيناه لا تهدآن كأنه يستدعي الأسئلة في مشاهداته، ذكي بدرجة مشاغب، ملك في الثالثة من عمرها تبدو كصورة مُصغَّرة من والدتها سارة، كما أن لها الذقن المدبب نفسه، كأنها ماسة قُطعت بعناية فائقة، هدوؤها ورِقَّتها يجعلانك تتأمل لوحة لطفلة منغمسة في عالمها الخيالي.

أما سارة زوجته وابنة عمه، فهي حلم العمر الجميل، كان يشعر أنه رجلها منذ طفولتهما، وفي مراهقتهما كانا صديقين بدرجة حبيبين، ولكن قرابتهما رعت تلك المشاعر في سياج من الود رغم العاطفة المؤجَّلة. ملامح وجهها كانت دومًا مِحرابه الذي اعتاد أن يتبتَّل فيه منذ توهَّجت عاطفته

نحوها في سنوات المراهقة الأولى، وكانت عيناها طوقي النجاة اللذين انتشلانه من حُزنه على وفاة والده اللواء محمد فراج، دِقة قوامها يجعلها تبدو بجواره كطفلة تحتمي به وتتعلق بذراعيه. تربيا معًا، وعندما تقدَّم ابن زميل والدها لخطبتها، ثارت ثائرته، ولم يهدأ إلا بعد أن وافق عمُّه على إعلان خطبتهما رغم أنه كان وقتها في السنة الثالثة بالكلية الفنية العسكرية، مضت فترة الخطوبة كحلم جميل، وبمجرد أن تخرج تم زفافهما، وبات الحلم حقيقة رائعة تفوق الخيال، لا ينغصها إلا مساحات الغياب التي يفرضها عملُه في الجيش، مسافات من الوقت يقطعها كلاهما بفارغ الشوق ليُلقي كلٌّ منهما حنينه في أحضان الآخر.

– هأقوم أعملك الفطار.

احتضن رأسها وأنفاسه تحرق صدره.

– سارة، المرادي هاغيب كتير.

رفعت رأسها ونظرت بعينين دامعتين، وقلبها يودُّ لو يغادر صدرها ليحتضن قلبه.

– ليه كدا يا ماجد؟

ابتلع ريقه واعتدل في جلسته وهو يحتفظ بحضنها.

– نظام الأجازات اتغير، معلش نستحمل مع بعض، ربنا هايهونها.

ردت بطمأنينة صوتها، بوصلته التي تعيده دومًا إلى شواطئ الهدوء:

– معلش يا حبيبي، ربنا يهوّنها وهاترجعلنا بألف سلامة بإذن الله.

جلست تعدُّ له حقيبته كعادتها، وهو يجلس على طرف السرير يراقبها، وهي ترفع خصلات شعرها الهاربة إلى وجنتيها، تبدو كأنها في مهمة تفكيك لغم أرضي مثلًا أو تركيب رادار، هكذا اعتاد أن يداعبها وهي لا ترفع رأسها إليهِ حتى لا تفقد تركيزها، كان يومها يحدق إليها، كأنما يحفر وجهها على عينيه، وكعادتها كانت تدسُّ بين حاجاته قطع الشوكولاتة، وبعض الخطابات التي كتبتها على أوراق صغيرة ملونة، وتحرص على ألَّا يراها وهي تضعها، وهو اعتاد أن يتصنَّع تشاغُلًا حتى يعطيها فرصتها لتشعر بالانتصار في مهمتها، ما زال وهج حبهما في أوجه، وما زالت قادرة على أن تبقيه مشغولًا بها رغم تركيزه الشديد في عمله، وانشغالها بلؤي وملك.

استيقظ لؤي وتبعته ملك وتدافعا ليحتضنا أباهما:

– بابي.. خلاص ماشي.. خليك انهاردة ونروح النادي.

– بابا عنده شغل يا حبيب بابا.

حملت سارة ملك وسار لؤي بجانبها وهو ممتعض:

– هاتيجي إمتى بقى؟

– مش بابا بقاله إسبوعين بحالهم معاك؟

– لا مش كفاية.

تضاحَكَ ماجد وسارة مع طفليهما، وقضيا وقتًا لطيفًا في الساعة المتبقية قبل سفره إلى الكتيبة.

– وعند الباب احتضن ماجد سارة وطفليهما، رددت سارة الدعاء لماجد بصوتٍ يملؤه الخشوع، وعيناها لا تتركان عينيه.

– "إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد"، ربنا يردك لينا سليم معافى من كل سوء ويحفظك من كل مكروه .. لا إله إلا الله.

– أنزل ماجد لؤيًّا من خلف ظهره، وأمسك بيديها وقبَّلهما طويلًا، يكتب بأنفاسه قصة ولعه بها، يستودع الله قلبًا يعشقه، وروحًا يهيم بها، وعقلًا يتحصن بهدوئه حين تعصف الحياة به، ثم قال:

– آمين آمين...محمد رسول الله، أشوفكم على خير.

–غمز للؤي وهو يغلق الباب.

– خلوا بالكم من بعض.

"المهمة"

"محدش يعرف بالمهمة دي يا ماجد".

نفث صابر دخان سيجارته، ثم ألقاها خارج النافذة وهو يُحدِّق إلى الظلام المطبق خارج الحجرة، ارتعشت كفَّاه فأحكم قبضته كأنه يلاكم مجهولًا لا يعرف من أين سيظهر:

– والمفروض كمان حتى أنا وانت ما نتكلمش في الموضوع مع حد من زمايلنا ولا بيننا في غير وقت التدريب.. بس هو ينفع أقولك إن أنا خايف؟

ارتجف صوتُه، ولكنه أكمل بصوتٍ متهدج:

– ينفع أقولك على قد ما احنا بقالنا قرب السنة بنتمرن على تفاصيل دقيقة جدًّا بس ساعات باحس إني ناسي كل حاجة، وكل ما الوقت بيقرب بيبقى نفسي أصحى وأسميه كابوس أصلًا؟

قاطعه ماجد، كأنه يصرف الأفكار نفسها من عقله، كان يغمض عينيه ليتلاشى وقع كلام صابر، ولكن مهما تتزاحم الحروف في عقله، كانت

تتلاشى أمام إصراره على أن يبدو متماسكًا رغم ما يعتمل في صدره من قلق:

– ادخل نام يا صابر، وأنا داخل أنام كمان تصبح على خير.

أشهرٌ من التدريب المستمر قضاها ماجد وصابر في الكتيبة، يراجعان أدق تفاصيل المهمة الموكلة إليهما، يعيدَّان الخطوات ويتباحثان من الفريق الخاص في كل الاحتمالات، حتى أصبحت تفاصيل المهمة كالوشم على خلايا عقليهما، كان ماجد يسابق الأيام بهمةٍ غير عابئ بضبابية النهاية التي تنتظره، في مهمة تبدو انتحارية، يتفوق على نفسه في التركيز والدقة، لا يضاهيه براعة إلا صابر، وإن كان صابر قد اعتاد أن يُخفف من حمله وتوتره بشخصيته الكوميدية المُحبَّبة لمن حوله، مما يخفف من حدة جِدية ماجد في العمل، فيبدوان معًا كمزيج متزن. تصادف كونهما من الدفعة نفسها، وتربطهما صداقة قديمة، فزاد ذلك من كيمياء التوافق في التدريبات، وأعطى ثقة بتنفيذ مهمة تحتاج إلى تناغُم في التنفيذ، وسرعة ودقة في الأداء.

استدار صابر وأمسك بكتف ماجد وهو يهمُّ بمغادرة الغرفة:

– إنت مدرك المهمة المطلوبة مننا؟ إنت متخيل إيه اللي هايحصل؟ إنت ممكن ماتشوفش ولادك تاني! باستغرب يا أخي، انت عندك حاجات كتير تخليك مش ثابت كدا، يعني أنا برضه يادوبك خاطب مفيش حد في رقبتي.. طب إيه يا جدع! أنا اللي غلط واللا انت مش طبيعي؟ الموضوع خطير والمشوار طويل.

استدار ماجد متأففًا ليقطع على صابر استرساله في قلقه، حدق إلى ملامح وجهه المتجهمة، كان صابر أطول من ماجد، وربما لنحافته الشديدة كان يبدو أطول من حقيقته، ملامحه صعيدية، بوجهه الأسمر الحاد وأنفه المدبب، وشفتيه الغليظتين، ولكن مَسحة الطيبة كانت تشعرك بروحه القريبة، ولكن الليلة انسحبت ملامح البشاشة، واكفهرَّ وجهه قلقًا، ربت ماجد على كتف صابر واستعار ابتسامة باهتة خبَّأ خلفها - بحرص شديد - وقع كلمات صابر الهادرة:

- ادخل نام يا صابر عندنا بكرة معاد مهم، ما تشغلش بالك، كله هايبقى تمام.

سار ماجد إلى غرفته بخطًى متسارعة، هاربًا من كلمات صابر التي كان يسمع صداها في صدره، كانت تدور في تلافيف عقله، وتُوقظ وجعًا يحاول أن يتجنبه.. أعاننا الله يا صابر يا أخي، أُدرك كل ما تقوله، أحاول أن أُلقيه بعيدًا داخلي، أخبئه بعيدًا عن خاطري لأستطيع التركيز في المهمة. هكذا كان ماجد طوال حياته، يسعى لأن يكون عند أفضل توقعات من حوله، اكتسب سُمعته الطيبة في عمله من قمة التزامه ودقة تطبيقه للتدريبات، فكان مرموقًا بين زملائه، محبوبًا من قادته.

أغلق ماجد الباب خلفه ووقف برهة يبتلع ريقه الذي جفَّ فجأة، مع ضربات قلبه المتسارعة داخل صدره، سار ببطء، ثم ألقى نفسه على السرير، حدَّق إلى سقف الغرفة الغارقة في الظلام، فابتلعته وجوه عائلته الصغيرة، وألقت به إلى أزمنة لم يعد يتيقن إن كان سيدركها، طافت به في المستقبل

البعيد، في حفل تخرج ابنه في الكلية، وزفاف ابنته، حدق أكثر فرأى عيني سارة وقد سكنهما الحزن برحيله، واتَّشحت روحها بالسواد، وعدتك أن أزرع أيامنا هناء، عِديني أنك ستكملين الطريق مع أبنائنا.. نزلت دمعة ساخنة تحفر طريقها على وجنته، وتلاحقت أنفاسه عندما أضاء هاتفه باسمها.. سارة حبيبة عمره، تردَّد كثيرًا في الرد، كانت دقات قلبه ترتفع إلى حلقه. ابتلع ريقَه وردَّ باسمًا:

– ألو.

جاءه صوتُها كأنه اغتسل للتوِّ في أنهار الشوق:

– وحشتني.

– سو حبيبتي، انتي أكتر.

– مالك يا عمري، يومك كان تقيل وللا إيه؟

– لا العادي، ما تقلقيش. الولاد عاملين إيه؟

– كويسين يا حبيبي، كله تمام يا فندم.

ضحك ماجد عاليًا، وهو يتذكر يوم صمَّمت سارة على أن ترتدي لباسه العسكري يوم حصل على ترقيته، وسارت في أرجاء المنزل بخطوات عسكرية مفتعلَة:

– آه يا سوسو، يا أحلى وأغلى قيادة لقلبي وروحي.

صمتت سارة وهي ترتوي من عطشها لضحكته.. ثم همست برقة:

- بجد بقى... وحشتني.. يللا تعالى.

- أنا طول عمري جنبك يا قلبي، إنتي معايا في قلبي وروحي، أنا حتى واحنا مش مع بعض، إنتي بتبقي في حضني، وأنا في حضنك.

أغمضت عينيها لتستبقي اللحظة:

- ماجد.. روح قلبي. نور عيني.. عمري كله.. بحبك.

- وانا باموت فيكي يا سو.

"المقابلة"

أشعة النهار تخترق الزجاج، وترفع درجة حرارة المكان، والمروحة الوحيدة في أحد الأركان تدور لاهثة محاولة أن تحتوي حرارة الغرفة. أمسك صابر بظرف في يده وأخذ يُلوِّح به أمام وجهه محاولًا تخفيف الاحمرار الظاهر على وجنتيه من حرارة الجو والموقف.. بينما اكتفى ماجد بمنديل ورقي يقتنص به حبات العرق المتفصدة عن جبينه، دخل العميد سامح إلى الغرفة بخطواتٍ عسكرية سريعة، فهبَّ الاثنان وقوفًا، وأدَّيا التحية العسكرية.

- اتفضلوا اقعدوا.

العميد سامح قائد الفرقة والأب الروحي لماجد، وصديق والده منذ زمن، وهو مثل أعلى للعديد من الضباط الصغار بتفانيه، ولمحاته الإنسانية، وحرصه على التقرُّب من جنوده، ومشاركتهم لحظات الفرح والترح، كان يبدو اليوم مقتضبًا، فهو يناقش اليوم اللمسات الأخيرة لخُطة المهمة، رفع رأسه من بين الأوراق التي كان يتفحصها بدقة، وابتسم ابتسامة مقتضبة وهو

ينقّل وجهه بين النقيبين الجالسين أمامه، أراح ظهره على كرسيه، وحاول أن يتخلص من التوتر الذي انقضَّ على عضلات ظهره، فاعتصر كُليتيه، هذا آخر لقاء له مع ضابطيه، أزال حشرجة صوته والغُصة التي علقت بحلقه، وقال بصوته الجهوري:

– انتم دلوقتي جاهزين للمهمة، نراجع بسرعة، تفاصيل المهمة، انتوا اللي هاتسمعوها المرادي، احنا اتدربنا على كل التفاصيل وانا مطمئن لكفائتكم. دا مجهود كبير اشتغلنا عليه بعزم وتركيز.. وسرية.

بعد أن اطمأنَّ أن الخُطة مُستوعَبة ومحفوظة تمامًا من ماجد وصابر، أشعل سيجارته ونفثها ببطء، ثم أردف قائلًا:

– مفيش حاجة في الدنيا مضمونة مية في المية، بس اللي لازم تبقوا متأكدين منه إني واثق فيكم ومتأكد إنكم مش هاتخذلوا بلدكم مهما كلفكم الأمر، دي عقيدة الجيش اللي اتربيتوا عليها يا رجالة. تاني بس ها أكد على نقطة أخيرة مهمة جدًّا، محدش فيكم يبقى معاه أي حاجة تدل على هويته، ولا سلسلة حتى ولا صورة ولاحاجة، مفيش أجهزة اتصال، الشنطة اللي هاتستلموها فيها الكبسولات اللي فيها المادة اللي اشتغلنا عليها سنين عشان ننقذ البلد من شبح الجفاف، والبدلة الخاصة بالمهمة. من القاعدة الجوية بتاعتنا في السودان هاتكون نقطة الانطلاق، بإحداثيات كإنكم راجعين مصر وبعدين ها تنزلوا بالخفاش الطائر اللي اتمرنا عليه في سلاح المظلات مش هاتلقطكوا الرادارات بتاعتهم بإذن الله، تدخلوا لأثيوبيا، هاتمشوا في الصحرا ليلة وبعدين هاتباتوا لحد الليل، كل حاجة محسوبة زي ما اتمرنا عليها، اتمرنا كتير على طريقة التعامل

مع المادة الكيماوية وإزاي هاتلزقوها بجسم السد، وتفعيل جهاز التفجير في كل كبسولة. الموضوع دا مهم جدا، المسافات بين الكبسولات عشان الضرر يبقى محسوب، السد ينهار من غير ما مصر ولا السودان يغرقوا، النقطة اللي هافضل أأكد عليها السرية يا رجالة، السرية، مش عاوزين نخلق مشاكل سياسية ولا عسكرية للبلد.

قلَّب في الأوراق أمامه ثم رفع رأسه، وأنزل نظارة القراءة من أمام عينيه:

– طيب تمام، أي سؤال؟ بالتوفيق يا رجالة.

هَبَّ النقيبان وقوفًا، وبعد أن أدَّيا التحية العسكرية سارا بخطًى عسكرية إلى خارج الغرفة، أسند العميد سامح وجهه على كفِّه وتنهَّد أسفًا، كانت عيناه تحدقان إلى الباب الذي غادرا منه، ربما كان يُودِّع أطيافًا سبقتهما، وأرواحًا ستلج من هذا الباب مبتسمة ابتسامة شهيد بُشِّر من أول دفقة دم بالفردوس الأعلى. أطرق ينظر إلى الورق الموضوع بدقة على مكتبه:

– معلش يا محمد فراج يا خويا، الله يرحمك يا حبيبي، أيوه قولتلك ماجد دا ابني قبل ما يكون ابنك، بس أنا مكنتش هاضنّ بابني على بلدي برضه، هو ربنا اختاره مش انا، ربنا يوفقهم يا رب.

في غرفتهما، أشعل صابر سيجارته ونفث دخانها بعصبية، ثم استدار مخاطبًا ماجدًا ببطء، كأنما تتلكأ الحروف في فمه:

– هانبات انهاردة في القاعدة الجوية؟

هَزَّ ماجد رأسه مؤكِّدًا، جلس مرتاحًا وقد أسند قدميه على الكرسي المقابل، وأخرج هاتفه المحمول، يُقلِّب في صور عائلته، يبتسم تارة ويتنهد تارة أخرى، وصابر يُحدق إلى المجهول، الذي أصبح عنوان أيامه مؤخرًا.

صابر الضابط الصعيدي الأسمر، القلب الطيب، والوجه الضحوك، الذي كسب قلوب كل زملائه، فتجده أول مَن يرقص في الأفراح، وأول من يحمل الجنازات على كتفيه في المآتم، يقف بجوار الجميع، حفظ القرآن في كُتَّاب قريته، فكان إمامهم في الصلاة، وفي الوقت نفسه أفضل من يُخطط إجازات الكتيبة والسفر مع أصدقائه، فكان بحقٍّ فاكهة الدفعة، جمعته بماجد سنوات الدراسة في الكلية، ثم تفرَّقا بعد التخرج كُلٌّ في كتيبته، واستمرت صداقتهما، ثم جمعتهما هذه المهمة، يقطن أبواه في الصعيد في إحدى القرى التابعة لقنا، أما هو فقد استقرَّ بعد تخرجه في شقته في مدينة نصر في القاهرة، التي أعدها ليتزوج فيها بابنة بلدته في الصعيد، سهام ، اختيار والدته التي تعلقت به سريعًا، وهو ارتاح لها، وهدأت رحلاته الخاطفة إلى قلوب بعضهن، واكتفى بها خطيبة وحبيبة. لا يذكرها كثيرًا كعادة أي صعيدي، ويتعمد أن يتحدث معها بصلافة عندما يرد على اتصالها وسط جمع من أصدقائه، لكن ينابيع عاطفته لا تفيض بالبوح إلا لها وحدها.

– انت أخدت بالك؟ ما راجعش معانا خطة العودة يعني.

ثم ضحك بعصبية واضحة، غمغم بلهجته الصعيدية التي لا تخرج إلا في توتره وعصبيته:

– يا بوووي، ماشكلهاش فيها رجوع يا ولدي.

ضحك ماجد وقد أغمض عينيه على اللحظة التي يسعده فيها صابر بلهجته الصعيدية المُحبَّبة.

– أيوه بقى يا راجل يا صعيدي هههه، بص يا صابر كل المهم دلوقتي إننا ننفذ المهمة، أما بقى موضوع العودة دا يا باشا، فالعميد سامح تطرق ليها كذا مرة إننا لازم ندخل السودان، وبعدين نسلم نفسنا للسفارة دا لو ما غرقناش في النيل بعد تفجير السد لو يعني لا قدر الله كان فيه أي خلل في مسافات وضع الكبسولات بحيث المية لو اندفعت بشكل جامد هاتغرقنا إحنا أصلًا، مش حكاية إنها ما تغرقش اللي قدامها، ودا إذا كمان لو ما متناش من الجوع أو اتاكلنا في الصحرا.

أكمل ضحكته:

يابني عودة إيه دي! دي عملية استشهادية، استشهاااااااادية، وانت تقول لي عودة؟ ربنا يهديك يا صابر.. انت مش أخدت أجازة أسبوعين يا بني وروحت لأهلك في البلد وشوفت خطيبتك سهام وكدا؟

أكمل ماجد ضحكاته العصبية:

– طب عاوز إيه تاني بقى؟ واأنا!

ثم غمغم قائلًا بعد أن أحس بغصة وهو يبتلع ريقه:

– الحمد لله.

تنهد ماجد بقوة، يحاول أن يزيح عن صدره وجعه على فراق أسرته. دفن ماجد وجهه بين كفيه، وانسحبت ضحكاته أمام دموعه المنهمرة، احتضنه صابر بقوة.

– آه يا ماجد، ربنا يثبتنا يا أخي، ربنا يثبتنا ويتقبلنا عنده، ربنا يرحم قلب أمي ويستر على أبويا ويكرم سهام بقى، ويصبر مراتك وولادك وأمك يا صاحبي، سهام كمان غلبانة، بتحلم بالجواز وبتزن كل شوية هاتجهز الشقة إمتى يا صابر؟ هانتجوز إمتى يا صابر؟

سكت صابر وهلة، ثم أضاف في ضيق، وقد انتفض من مكانه واقفًا، كأنما فطن إلى أمر مهمٍّ:

– دول حتى مش هايكرمونا يالا! هانروح فطيس كدا من غير ما حد يعرف إحنا عملنا إيه علشانهم، هايتهد السد ولا من شاف ولا من دري، ينهار من فعل المادة الكيميائية اللي في الكبسولات اللي هاتاكل الخرسانة والأسمنت اللي في جسم السد والتفجيرات هاتكمل عليه وضغط المية من وراه هايجيب عاليه واطيه.. وفجأة هايلاقوه بيقع حتت حتت، لا إحنا ولا مصر ليها دعوة بحاجة، قضاء وقدر يا باشا، ويطلعوا في التليفزيون يقولولك، وظهرت عدالة السماء على سد النهضة.

اختلطت ضحكاتهما بدموعهما، واحتضنا بعضهما البعض طويلًا.

"الترتيبات الأخيرة"

في الصباحِ كانت المحاضرة الأخيرة مع المهندس الكيميائي صاحب التركيبة المُبتكَرة في معامل الجيش، التي عمل عليها طوال سبع سنوات بجهدٍ وسهر بلا كلل، ابتسم الدكتور المهندس عبد الرحمن الراوي وهو يفتح الحقيبة وينظر إلى الكبسولات بداخلها بفخر مختلط بالأمل، قلَّب عينيه بين وجهي ماجد وصابر والكبسولات:

– دول ولادي، تصدقوا كان ناقص بس أسميهم، دول أمل مصر يا رجالة ونتاج سنين من السهر والتعب والدراسة، في أي أسئلة استجدت من آخر مرة اتقابلنا؟

هَزَّ صابر رأسه بلا، وأضاف ماجد:

– لا يا فندم كله تمام.

أكمل عبد الرحمن قائلًا:

– انتوا عارفين خطة العميد سامح، الجزء اللي أحب أفكركم بيه هو عامل الوقت، والمسافات بين الكبسولات، الوقت اللي هاتحتاجوه في وضع وتثبيت الكبسولات، والوقت اللي هاتبتدي فيه الكبسولات تتفاعل مع جسم السد، ثم تفعيل جهاز التفجير في كل كبسولة، ولما تبتدي سلسلة الانهيارات، وبالتالي اندفاع الماء بشكل متتابع من غير ما انتوا تنجرفوا ولا تتئذوا من اندفاع المية، عشان تقدروا تكملوا المهمة في الوقت الصحيح. دا كمان هايحدده المسافات بين الكبسولات طبعًا زي ما اتدربنا. كمان طبعًا باذكركم إن فيه جهاز تفجير موجود في البدلة نفسها عشان لو لا قدر الله السلطات الأثيوبية ...

ساد صمتٌ، وانسحب الهواء من الغرفة فجأة، وبات الجو ثقيلًا قبل أن يقطعه صابر بمزاحه المعتاد مصدرًا صوت فرقعة بفمه وهو يضغط على صدره، فانفجر من بالقاعة ضاحكين.

– هاتستلموا البدل حالًا، وكبسولات الأكل طبعًا عشان فترة تواجدكم في الصحرا في مرحلة الاستكشاف وترتيب الخطوات قبل التعامل مع السد والعودة بإذن الله.

التفت د.م عبد الرحمن إلى صابر مازحًا:

– هاعوضك يا صابر لما ترجع بالسلامة بأكلة كباب معتبرة.

تعانقت أعينهم جميعًا، واحتضنهما عبد الرحمن بأبوة وفخر مربتًا على ظهر ماجد:

– في انتظار أخبار انهيار السد يا أبطال.

أدَّى ماجد وصابر التحية العسكرية، وانصرف المهندس عبد الرحمن.

أخذ صابر يُقلِّب في الكبسولات بحذر، وينقلها إلى حقيبة الظهر التي تسلَّمها لتوه، اقتسم الكبسولات بينه وبين ماجد الذي بدا في قمة تركيزه، وقد عقد حاجبيه، وتجهّم وجهه من شدة التركيز.

- كدا تمام.

نظر إلى صابر الذي أكد هو الآخر أنه انتهى من إعداد حقيبته وفقًا للطريقة التي تدرَّبا عليها من قبل. دخلَ أحد الأفراد ومعه البدلتان اللتان سيلبسانهما قبل الدخول إلى الحدود الإثيوبية، وسلمهما لصابر وماجد، ثم أبلغهما:

- العميد مدحت مستنيكم في مكتبه.

أكمل ماجد وصابر استعدادهما، وتأكدا تمامًا من اكتمال ترتيب الحقائب، كما تعلما خلال تدريبهما، ثم سارا بخطًى سريعة للقاء اللواء مدحت قائد الوحدة الجوية التي قضيا فيها الليلة، هبَّ اللواء مدحت واقفًا عندما رآهما، أطفأ سيجارته بعصبية، وسلم عليهما، وقد بدا عليه القلق:

- معلش يا رجالة، للأسف الخطة اتعدلت.

نظر ماجد وصابر إلى بعضهما البعض في قلق، ثم تابَعَ العميد مدحت حديثه بعد أن أشعلَ سيجارة أخرى بعصبيةٍ بالغة:

- جالنا تأكيد من المخابرات الحربية إن أثيوبيا ركبت امبارح بس رادارات جديدة، وبقى في خطورة إن الطيارات والخفاش الطائر يتلقط بالرادار، مش ممكن نغامر، هاناخد الطريق الأطول.. السودان.

"أسوان"

اهتزازات الشاحنة فوق الطريق الوعر تشعره بالغثيان، معدته الحساسة نقطة ضعف صابر الوحيدة، أمسك القضيب الموجود خلف مقعده بكلتا يديه محاولًا تقليل حركته، بينما يجلس ماجد في الجهة المقابلة له يتفرس في وجهه الذي يعتصره الألم.

– احمد ربنا إن إحنا روحنا أسوان بالطيارة، ولو إنها هي برضه ماكانتش فارقة عن كدا.

رفع صابر رأسه محاولًا الابتسامة:

– يا أخي أنا لو روحت مشي كان أحسن لي. مش كانوا أخدونا للقاعدة بتاعتنا اللي في السودان واتحركنا من هناك؟

– ماهو العميد سامح أكد ع النقطة دي، مفيش غير قليل من القيادات اللي يعرفوا بالمهمة دي. الموضوع سري للغاية.

توقَّفت الشاحنة التي أقلتهما من القاعدة الجوية، وترجَّل منها ماجد وصابر، بالجلابيب الصعيدية التي يلبسانها، وسارا في طريق طويل مهجور، في اتجاه مقهى صغير مُكوَّن من أربع طاولات متهالكة، يجلس على إحداها شيخ أسمر بلون الليل البهيم، وقد حفر الزمن على وجهه تضاريس الصحراء القاحلة، يلفُّ عمامة بيضاء هائلة، ويرتدي جلبابًا أبيض كهيئة أهل السودان، يحتسي شايه على مَهَلٍ مُحدثًا ضجيجًا مع كل رشفة، كأنه يتحدث بصوتٍ عالٍ مع الشاي في كوبه، اقتربا منه، وبدأه صابر بالكلام بلكنته الصعيدية:

- السلام عليكم يا زول، كيفك يا بووي؟

أنزل الشيخ عتمان، تاجر الجِمال السوداني كوبه بتأنٍّ، ومَدَّ يَدَه مُصافحًا الرجلين، مُرحِّبًا بهما بلكنته السودانية:

- أهلين وسهلين، كيفنكم؟ كيف الحال؟ إن شا الله طيبين، يا حليلكم.

بعد أن شربا الشاي الذي يقترب لونه من الحبر الأسود، أخرج ماجد ظرفًا وسلمه للشيخ عتمان، وبادره صابر مؤكدًا:

- كدا يا شيخ وصلك أجرة روحتنا معاك السودان مع رجالتك، بس المهم ما عايزينش نسافرو مع ناس بتلُك كتير، ماعايزينِش قعدة مع ناس كتيرين كلام.

اعتدل الشيخ وقرّب وجهه من صابر، وقد زمَّ جفونه ورفع حاجبه:

- بس جول لي الحجيجة، المصلحة اللي هاتجيوها إيه م السودان؟ هاتجضوها ميتا هناك عشان يعني نبجي نعملو حسابنا نرجعوكوا؟

كان ماجد يجاهد ليتبيَّن الحوار بين الشيخ وصابر، وقد قطَّب حاجبيه، وحدَّق إلى شفاههما كأنه يتلقف الحروف ليفك شفرة الحديث، أكمل الشيخ عتمان:

– لو ع الجمال يا بووي، دي شغلانتي، أنا باجيبها وتستلموها هنا، إيه لازمة تاجوا معايا، أنا باسلم التجار هنا، محدش جبل كدا راح معايا م التجار، أما لو ليكم مصلحة في أي حاجات تاني سوداني معتبرة رايحين تجيبوها من هناك جولولي وفطموني.

ثم ضرب الشيخ عتمان على الطاولة بحزم وقد دبَّ القلق في أوصاله:

– أو تكونوش هاربانين من حاجة هنا وعاملين حسابكم هاتتداروا في رجالتي؟

قاطعه صابر:

– لا يا بووي لا حاجة تانية ولا تالتة، إنت أخدت حجك أهه وبزيادة كمان، لسة بنجول ما عايزينش كتر كلام.

هَزَّ العجوز رأسه أسفًا. وهو يتأمل المبلغ المالي في الظرف الذي تلقفه بسرعة:

– تكونوش رايحين تجيبوا سلاح! الله يخربيت التار اللي مولع الدنيا في الصعيد، دا البلد غرجانة سلاح ما ناجصاش والله.

رفع عينيه يتفرس في وجهي ماجد وصابر، يبحث عن إجابات للأسئلة التي تدور في ذهنه وعلى لسانه، ثم استسلم أخيرًا:

– ماشي الكلام، ما دام عارفين مصلحتكم ورايحين لمين خلاص يا بووي. بس الرجعة بجى بأي مصيبة هاتجيبوها ليها سكة تاني، وحساب تاني.

تململ ماجد في جلسته، يريد لهذا الحوار أن ينتهي كما يريد، فاعتدل صابر وتلقف خيط الحوار، مُجيبًا الشيخ عتمان بحزم:

– ربك يدبرها من عنده في الرجعة يا بووي. عدينا بس معاك من حرس الحدود واحنا هانتصرفوا بعديها.

– ماشي يا بووي، هانتحركوا بعد تلات ايام من انهاردة.

مكث ماجد وصابر ثلاثة أيام في أسوان في انتظار رحيل قافلة الشيخ عتمان عبر الحدود المصرية السودانية، استمتعا فيها بالليالي الأسوانية الدافئة والوجوه الطيبة، النزهات الصباحية وسط العراقة والآثار، لا يحصي ماجد عدد المرات التي أمسك فيها بعض الجعرانات وهو ينوي شراءها للؤي، ولا عدد المرات التي لفت انتباهه بعض الجلابيب الصغيرة، المُزيَّنة بالترتر البراق، وانتوى شراءها لملك، ولكنه كان يدرك أنه لن يعود قريبًا للمنزل، وربما لن يعود إلى هناك أبدًا، ربما سيحصل عليها لؤي في رحلة مدرسية بعد سنين بعيدة من الآن، هو حتى لن يستطيع أن يرسلها لهما، حسب أوامر العميد سامح.

كان ماجد يكتفي بمكالمات مقتضبة مع زوجته سارة والاطمئنان على الصغيرين، أما صابر فقد خذلته أعصابه في جدال مع خطيبته سهام ولم يعد يحادثها، واكتفى بمكالماته لأبويه.

تنهَّد صابر وهو ينفث دخان سيجارته من شُرفة غرفتهما بالفندق:

– بلدنا جميلة، النيل في أسوان مختلف، ربنا يديمه نعمة، عارف يمكن ربنا عمل كدا والخطة اتغيرت عشان الوقفة اللي أنا واقفها دلوقتي بتختصر كل الكلام يا ماجد، مصرهي النيل، مش قصة شريان حياة، لا.. النيل هو مصر.. بجماله وطيبته، يمكن أنا متربي في الصعيد ولفيت كتير بس تصدق ما جيتش أسوان كتير؟ إزاي كدا!

نظر وراءه ليجد ماجدًا متمددًا على السرير، وعيناه معلقتان بسقف الغرفة، سارحًا بعيدًا، كان مستلقيًا هناك، ولكن روحه سافرت لسارة والأولاد، كان يستعيد ذكريات آخر إجازة لهم في العين السخنة، كان يبتسم وهو يتذكَّر مناقشاته الصغيرة مع لؤي الذي يتمنى لو يقضي يومًا واحدًا مع أبيه في كتيبته، يسأله عن أنواع الأسلحة وأسامي الطائرات المختلفة، عيناه كثقبين أسودين تبتلعان المعلومات وتخزنانها بحرص في عقله الصغير، ملك وعرائسها وعالمها الخاص، أحضانها المفاجئة وقبلاتها التي تُشبه رفرفة أجنحة الفراشات.. سارة.. تنهد بارتياح.. الحمد لله على نعمة سارة، وكأن قطعة من روحه كانت تحوم في سماء الغرفة وحطت في أحضانه، شعر بها وهي تحتضنه بشغف وتراءت له عيناها وقد سكنهما ولعُها به، أخرج هاتفه على عجلٍ، كالعادة... كلما فكَّر فيها وأحس بلقاء روحيهما، سارعت هي

بالاتصال به، ابتسم ابتسامة عريضة حتى أغمض عينيه، وهبَّ واقفًا ليغادر الغرفة:

– أيوة يا قلبي.. كنت لسة بافكر فيكي.

ردت بدلال:

– عارفة.. وحشتني.

– انتي أكتر، طول عمرك حاسة بيا يا سو.

– وانت كمان يا ميجو، فاكر لما كنت باتعب وتكلمني تقول لي مالك؟ أخبارك إيه؟

– أنا كويس كله تمام، انتي فين دلوقتي؟

– أنا في النادي مع الولاد ومعايا منى ومنال وولادهم، الولاد مبسوطين ومش عاوزين يروحوا؟

تنحنح ماجد وتوشَّح صوته برداء الجدية:

– بصي خلال يومين هابقى في سينا ومش هايبقى فيه شبكة، مش هاعرف أكلمك، ولا أطمن عليكم، فاكرة؟ زي السنة اللي فاتت.

– عشر أيام برضه؟

ابتلع صمته وابتلع ريقه بألم، وأحسَّ بتوترها على الجانب الآخر من الخط، كأنها أصبحت على الجانبِ الآخر من العالم، أحسَّ بنفسه يطفو في فقاعةٍ كبيرة بعيدًا عن العالم في الظلام:

– ما انتي عارفة، الله أعلم.

جاءه صوتُها مُطمْئنًا كعادتها تثق أنه سيعود ليحتضن قلبها ويمطرها بسحائب عِشقه، تستبقي وهج اللحظات بدقائق يُعيدها صوته المختلط بدقات قلبه إلى أحضانه رغم أميال البُعد.

– هاتعدي يا حبيبي وترجع لنا بألف سلامة.. يا نهار! عارف أكتر من عشر أيام لؤي هايبقى عنده حواديت قد إيه؟

جاءته ضحكتها رائقة من جوف الحلم.

– بحبك يا سارة، باموت فيك، ونفسي أعيش واموت في حضنك، عاوز أحضنك لحد ما نبقى حاجة واحدة، عاوز نفسك يبقى آخر حاجة أتنفسها، طعم شفايفك آخر حاجة أدوقها.

تنهدت سارة في خجل ثم همست في دلال:

– ربنا يخليك ليا يا ميجو يا حبيبي، لسة العمر طويل قدامنا، لسة هانعجز سوا، ووشي هايكرمش وتقول لي بقيتي عجوزة يا سو وهاشوف واحدة صغيرة غيرك تدلعني.

– أبدًا.. هاتفضلي حب عمري، وأحلى حاجة في دنيتي.

اطمأنَّ ماجد على سارة وولديه، وأغلق هاتفه ثم عاد إلى الغرفة ليجد صابرًا ما زال محدقًا إلى النيل من شُرفة حجرتها في الفندق. وكأن صابرًا يسافر بخاطره ليحتضن منابع النيل، ويتوحد مع انسيابيته، فيشعر بحنين وحب يداعبان روحه. استدار صابر وابتسم:

– هانرجع يا ماجد، بإذن الله هاننجز المهمة، وكل حاجة هاتمشي تمام ونرجع، ونعيش فرحة الناس الطيبة دي ودهشة العالم من اللي حصل للسد،

وانا وانت يمكن بعد خمسين سنة نكتب كتاب عن مغامراتنا دي والمخابرات العسكرية تسمح بخروج الإنجاز دا للنور.

جلس ماجد على الكرسي الوحيد بالغرفة، وداعب صابرًا قائلًا:

– انت فيك حتة فرعوني يا ياض يا صابر يا صاحبي، حتة بتحلم بالخلود.

جلس صابر على حافة السرير، وردَّ مستغربًا:

– دي طبيعة بشرية يا ماجد، الإنسان بيدور على معنى لحياته، وبيسعى للنجاح، لكن مهم عنده جزئية التقدير، وإنه يكون متشاف.. ع الأقل من اللي حواليه.. انت ما عندكش الرغبة دي؟ مط ماجد شفتيه وهو يبحث بين أروقة عقله عن إجابة ترضيه وترضي صابرًا.

– مش عارف، تركيزي أكترع المهمة، إني أؤديها على أكمل وجه.. دا اللي بيدور في عقلي يا صابر، شريط بيعيد في كل التفاصيل اللي راجعناها خلال السنة، الموضوع دا كان محور حياتي يا صابر لأكتر من سنة، عايش باحلم باللحظة اللي هازرع فيها الكبسولات في جسم السد، تصدق بقى مش بافكر إيه اللي هايحصل بعد كدا؟ مش عارف مش بافكر ليه!

هَبَّ صابر واقفًا.. اللي هايحصل إني جعان وعاوز نتغدى ونتفرج على معبد فيلة، ونقعد جنب النيل كدا شوية نشرب كوبايتين شاي وانا اشرب لي سيجارتين.

جلسة على النيل

على كورنيش النيل الأسمر في أسوان، وقد بدا النهر العظيم منحسرًا، وقد ابتعدت المراكب عن شاطئه حتى لا يحبسها تراجعه، تبادل الصديقان نظرات الحسرة، تنهَّد ماجد قائلًا:

– مفيش وقت، البلد مش هاتستحمل سنوات تخزين المية ورا السد، لازم فعلًا نتحرك بسرعة، الحمد لله إن المهندس عبد الرحمن أنجز الكبسولات في الوقت دا.

نفث صابر دخان سيجارته وقفز ليجلس على السور ووجهه للنيل وهمس:

مِشْ وَقْتُه أَحْكِيلِك

ولا أشَيِّلِك هَمِّي

دا وَقْتَ أنا أشيلِك

وارْوِيكِي مِن دَمِّي
دَمْعِك صَبَحْ سِيلِك
والفَجْرِ مِتْغَمِّي
أنا عارف.. مِش وقته
وقتِ السَّماح فُتُّه
ولَّا تِفْضِيلي
هَأْقْعُد على نِيلي
وابكِي على حالي
ما انتِي اللِّي فاضْلالي
واسَمَّعِكْ نُوحِي
وتْرَقَّعِي جروحِي
واحْكِي وَجَع دُقْتُه
أنا عارفَ.. مِش وقتُه
ليه الوَجَع فِ القَلْب
وانتي اللي قَلْبك طين
فايْتَه الجَدَع فِ الغُلْب

راوي بدُموع فَدادِين
عَدِّينا بيكِي الصَّعب
والفَرحْ لسة ضنين
بُعْدِ السَّما شُفْتُه
أنا عارفَ مِش وقتُه
هَمِّك زيِّ الجِبال
وهَمِّي حَبَّة رَمْل
بَسِّ انتِي أُمْ الرِّجال
وانا ضَهْري داب م الحِمْل
لو قادر أشيل أكتر
مِنْ هَمِّ أنا شِلْتُه
بَس مِش وَقْتُه

هربت دمعة من حصار جفون صابر فسارع يمسحها بكفِّه، كطفل صغير يفتقد أمَّه، تمايل ماجد طربًا:

– الله الله يا صابر.. إيه الكلام الجميل دا! تحفة بجد.

استدار صابر وابتسم لماجد وعيناه تتلألآن بالدمع:

– بلدنا جميلة يا ماجد بس زماننا بخيل، البلد دي محتاجة ناس يحبوها.. يبوسوا ترابها في السجود.. يعشقوا سمار وشوش الشقيانين، يحنوا عليها ويقدروها ويقدروا حملها التقيل.

أطرق ماجد وتنهَّد:

– الناس تعبانة يا صابر.. والشقا علم في الوشوش وجوا القلوب، الناس مشاعرها دبلت من هم الرزق والغلا، محدش طايق حد أصلًا، وحوار السد دا حمل تاني، دا انهيار كامل للبلد.

ابتسم صابر وهو يملأ عينيه من جمال النيل:

– بكرة هاتروق وتحلى.

وقف ماجد وهو يحدق إلى النيل.

– يا رب يا صابر، انت لسة ما دخلتش المطحنة يا صاحبي، مسؤولية بيت وعيال في الأيام دي مابقتش سهلة، دا الواحد بقى بيعمل حساب المشاوير عشان البنزين، وبتفكر ألف مرة قبل ما تخرج تاكل برا.

– دي حقيقة، بس دا في كل حتة في العالم يا ماجد، مش احنا بس.

– بس احنا متأخرين في الحلول يا صابر برضه، بلد زي مصر بمواردها الكتيرة محتاجة تخطيط لاستغلال دا كله، هايفرق جدًّا مع الناس وعيشتهم وتقبلهم للبلد والحكومة.

– بص هوا الناس كمان ما بترحمش بعضها.

– ما تفكرنيش، لسة سارة بتكلمني في الأجازة الأخرانية دي إنها نزلت عملت لفة كداع المدارس، الأسعار وهمية.

– استهبال يا بني والله، لو دخلت في الدوامة دي، هاتبيع هدومك، دا انا بقيت باحسب السجاير يا عم اللي باشربها، واللي تكلمه تقول له نخرج

تلاقي الشباب بقوا بيختاروا المكان حسب المسافة عشان البنزين ياجدع، السفر بح، كله بيتك بيتك.

ضحك ماجد وجلس مجددًا على سور الكورنيش، يُشبع نظره من جمال القوارب المتهادية على صفحة النيل، ثم استدار نحو صابر مازحًا:

– بص يابني، لو ربنا كتب لك الرجوع سيبك من حوار العيشة في مدينة نصر، وخلي سهام خطيبتك وكمان عيالك يتربوا في الصعيد أحسن لك.

لا هو انت فاكر العيشة في الصعيد رخيصة، والله يا بني، بقوا زي مصر وأسخم، المدارس وبرضه بقت غالية، والعيشة كمان، دا أهلي بيشتروا حتى العيش وبطلوا خبيز، بيخبزوا بس في المناسبات، حتى تربية الطيورمش زي الأول، بيشتروا كل حاجة.

سهر ماجد وصابر في هذه الليلة حتى اقتراب الفجر، تمشَّيا طويلًا على الكورنيش، وهمسا بأمنياتهما للنيل، وضحكا كما لم يضحكا من قبل، أخذا يسترجعان ذكريات عمريهما الذي يقف على ناصية الخطر، في منعطف لا يعلمان مدى صعوبة الطريق خلاله ولا بعده. غدًا بداية الطريق إلى المهمة التي قضيا عامهما في التدرُّب عليها، أيام طويلة بتفاصيل شاقة، أي وجع هذا الذي اختلط بضحكهما في هذه الليلة حتى بات كبصمة الصوت لكلٍّ منها!

القافلة

مع خيوط الفجر في أديم السماء، وميلاد النور في الأفق، كان ماجد وصابر يجلسان على المقهى حسب الاتفاق مع الشيخ عتمان، في انتظار قافلة عربات ربع النقل الخاصة بالشيخ عتمان، التي ستجتاز بهما الحدود إلى السودان مع رجاله، الذين يعودون عادة وهم يقودون الجمال، جلسا وبجوار كل منهما حقيبة بها بعض الملابس والطعام للرحلة، وفي جيب سري في كل حقيبة تختفي الحقيبة الصغيرة الخاصة بالمهمة.

هَبَّ صابر واقفًا بمجرد أن لَمَحَ الشيخ عتمان يتهادى في الطريق إلى المقهى، وتبعه ماجد:

– صباح الخير يا شيخ عتمان، تعالى نعزموك على كوباية شاي.

اقترب الشيخ عتمان يلبس جلبابه الأبيض يظهر تحته صديري رمادي، وقد انتفخت جيوبه بمحفظة بنية عريضه بها أزرار فضية كثيرة، ولا يظهر من رأسه المحلوق شيء تحت عِمامته الكبيرة، ويتكئ على عصا سوداء رفيعة، اقترب منهما، وسلَّم عليهما، وابتسم قائلًا:

– وماله نشربو الشاي ونتحركو بعد كدا على بركة الله.

أخذ ماجد وصابر مكانهما على ظهر إحدى العربات المكشوفة، ومن ثم تحرَّكت أربع عربات ربع نقلٍ متهالكة عبر الصحراء القاحلة والحر القائظ، والوجوه المكفهرة، التي تلثَّمت لتقلل من مساحات التعرض للشمس المُسلطة عموديًّا فوق الرؤوس، كانت بداية شاقة لرحلة طويلة في الجو القائظ، حيث حرارة الشمس تلهب الظهور، وتحني الرؤوس، الرياح تذرُّ الرمال في العيون. عبرت القافلة الطريق من أسوان إلى إدفو ثم إلى مرسى علم حيث قضيا الليلة هناك في وادي الجمال، وفي الصباح الباكر انطلقوا منها إلى حلايب وشلاتين، كما اعتاد الشيخ عتمان ورجاله، على أن يعود هو ورجاله يسوقون الجمال لبيعها في القاهرة لتجار الجمال.

– مش كنا اتحركنا بالليل؟

اشتكى ماجد وهو يشرب من زمزميته.

رد صابر ساخرًا:

– دا الشيخ عتمان يا حبيبي، ما بيرتاحش لا ليل ولا نهار في طريق الروحة بيرتاح عشان يحط بنزين بس، وعشان العربيات ما تسخنش، وفي طريق الرجعة بعد ما يشتري الجمال ويرجع بيها، بيمشي بيها لحد ما الجمال تتعب يريحها بس إنما إحنا دلوقتي زي بقية رجالته هانرتاح وقت العشا بس عشان ناكل لقمة واحدة طول اليوم والعربيات ترتاح.

في وقت العشاء اقترب أحد رجال الشيخ عتمان من صابر وماجد، وقدم لهما وجبة العشاء، وجلس بجوار صابر يسامره، وأخرج من جيبه ثلاث

سجائر حشيش، وقدَّمها لصابر وماجد بعد أن أشعلها، نفث صابر دخان سيجارته على مَهَلٍ قائلًا:

– صنف هاايل.

ابتسم الرجل واعتدل في جلسته بفخر.

رمق صابر ماجدًا بنظرة، ولكن ماجدًا لم يستجب له ولم يدخن سيجارته التي أهداها له الرجل، فانتزع صابر السيجارة من يد ماجد.

– هاات ملكش في الطيب نصيب.

تعجَّب الرجل ونظر إلى ماجد في ريبة:

– مالك يا بووي؟ معجولة دي؟

تهكَّم صابر ضاحكًا وهو يضع السيجارتين في فمه في آن واحد، ويشد أنفاسهما متمايلًا:

– سيبك منه من ساعة التار اللي عليه لا بينام ولا بيشرب، طب تُبجى عيشة دي؟

تضاحك الرجل مع صابر ثم سأله عن بُغيته في السودان، واستعداده لتأمين أي شيء قد يكونان قد شدا الرحال إلى السودان من أجله، فشكره صابر وطمأنه أنه يعرف خَطَّ سيره بدقة، ربما كان عينًا للشيخ عتمان وأحد مجساته، وقد يكون باحثًا عمَّا يعيده إلى بيته بمبلغ أكبر من الذي يعطيه إياه الشيخ عتمان الذي يبدو أنه يعطي رجاله فتات الكعكة ويحتفظ لنفسه بالنصيب الأكبر رغم المجهود الكبير الذي يعانيه الرجال في رحلة الصحراء القاحلة.

التفت صابر إلى صديقه ماجد متهكمًا بعد أن غادر الرجل:

– أهي دي حاجة كان لازم العميد سامح يدربك عليها يا صاحبي.

بعد ليلتين وصلت القافلة إلى منفذ رأس حدربة على الحدود المصرية السودانية، وبفضل سُمعة الشيخ عتمان كونه تاجر جمال مرموقًا، كان العبور من الحدود المصرية السودانية سهلًا، وفُتِّشت الحقائب ببساطة دون تدقيق، بينما سأل أحد الضباط الشيخ عتمان عن الرجلين الجديدين في القافلة، فطمأنه أنهما من رجاله المعتادين. كان ماجد وصابر في قمة سعادتهما بانتهاء الجزء الأول من الخطة. وصلا مع قافلة الشيخ عتمان إلى مدينة أوسيف السودانية، وهناك انفصلا عن القافلة حسب اتفاقهما مع الشيخ عتمان. التفت صابر إلى ماجد بعد أن ودَّعا الشيخ عتمان ورجاله:

– إحنا نشوف مكان نستريح فيه ليوم وناكل حاجة نضيفة.

رد ماجد بشغفٍ:

– أستحمى، عاوز أستحمى يا صابر.

تضاحك الاثنان، وتمنيا أن يستمر التوفيق حليفهما وهما يقتربان من الاستعداد للتسلل عبر الحدود السودانية الإثيوبية لينتقلا للمرحلة الأخطر والأهم على خير.

بعد الدخول إلى السودان، بحث ماجد وصابر عن فندقٍ يقضيان فيه ليلتهما قبل أن يتجها إلى الجنوب في اتجاه إثيوبيا. نزلا في أحد الفنادق المتواضعة، غرفة واحدة بسريرين، المياه في الصنبور تقترب من درجة الغليان، ولكن الماء المنهمر على جسدك هو الوسيلة الوحيدة للتخلص من رمال الصحراء

التي تتوغل في البشرة مع حرارة الشمس، فتصبح طبقة جافة تصيبك بالحكة وتتوغل إلى ذرات روحك، فتشعرك بكآبة، لتغسل به كآبة المنظر ووعثاء الطريق. أزيز مروحة السقف المتواتر بلا هوادة لا يدعك تستسلم للنوم إلا إذا أعفيتها من مهمة تحريك الهواء داخل الغرفة.

في الصباح بعد تناول طعام الإفطار في أحد مطاعم المدينة، استقلا عربة ركاب، ثم سيارة أجرة ليصلا إلى مدينة القلابات، قرب الحدود السودانية الإثيوبية بعد ثلاثة أيام، سلكا خلالها في رحلتهما طُرقًا غير ممهدة، فكانت الرحلة وعرة ومرهقة لكليهما، ظل ماجد طوال الرحلة مثبتًا بصره على صابر قلقًا عليه من وعثاء الطريق، وأثر اهتزازات الطريق في الطُّرق الترابية غير الممهدة، مع ما يعانيه من تعب في المعدة مع الحركة، مع الوقت حَلَّ الإرهاق في ملامح صابر، كان يحاول أن يغمض عينيه، واضعًا يده على فمه، وكأنه يحاول أن يمنع معدته من الخروج من فمه مع اهتزازت العربات المتهالكة التي يركبانها، إلى أن وصلا إلى مدينة القلابات. استقر ماجد وصابر في المدينة لمدة يومين متتاليين. انقطع اتصالهما بمصر وأهلها بمجرد عبورهما الحدود المصرية إلى السودان، وبوجودهما في مدينة القلابات، قلَّلا من وجودهما بين الجماعات، وتفاديا لفت الأنظار إليهما، فكانا يتناولان الطعام في غرفتهما ويغادران فقط ليلًا، لتنفيذ طلعاتهما الاستكشافية، والقيام بالرحلات المكوكية بين إثيوبيا والسودان، ويعودا بعدها في الخفاء، حتى اطمأنّا تمامًا إلى عبورالحدود إلى إثيوبيا استعدادًا لتنفيذ المهمة.

لحظة الصفر

توغَّل ماجد وصابر في الأراضي الإثيوبية في تخفٍّ وهدوء، في مسيرة تبدأ ليلًا وتهدأ نهارًا، حتى استقرا بالقرب من السد، وقاما بمتابعة دوريات الحراسة ومراقبة الوقت المناسب ومضاهاة المعلومات المعطاة من المخابرات الحربية عن الوضع بالقرب من السد، ثم راجعَ ماجد وصابر مُراجعة أخيرة لكل الخطوات، من حيث المسافات بين الكبسولات على طول ١٨٠٠ متر هو طول السد، بحيث يبدآ من المنتصف، وينطلق كل منهما في اتجاه معاكس إلى الضفة، مع مراعاة عامل الوقت في توقيت فتح الكبسولات وتشغيل جهاز التفجير الذي يفتح بعد التثبيت بثوانٍ ليُحدِث حرارة هائلة تساعد على اختراق المادة الكيميائية لجسد السد، ومن ثم تُتيح لضغط الماء المتجمع خلف السد أن يُشكِّل عاملًا مساعدًا في خلق شروخ قاتلة تودي بحياة هذا الوحش الجاثم فوق النيل. كان التدريب منصبًّا على أن يتم تثبيت الكبسولات بواقع كبسولة لكل ٥٠ مترًا؛ حتى يكون التضرر في جسد السد جسيمًا غير قابل للإصلاح، وفي الوقت نفسه تنساب المياه من الشقوق بشكل متأنٍّ ولا تندفع المياه بحيث تغرق ما أمامها.

في الليلة التي حددها الاثنان لتنفيذ المهمة، لبس ماجد وصابر بدلتيهما الخاصتين، ووضعا الحقائب الصغيرة خلف ظهريهما، وانطلقا في اتجاه السد.

عند موقع الانطلاق، وقبل البدء في العملية، أمسك صابر بيد ماجد وقال له:

– استنى عاوز أقولك على حاجة.

– خير؟

زمَّ صابر شفتيه وهو ينتقي كلماته بعناية:

– بص يا ماجد، انا بقالي تلات أيام باحلم نفس الحلم، وعاوز أحكيلك.

استغرب ماجد من توقيت صابر ولكنه حثَّه ليكمل:

– إيه يابني؟ فيه إيه؟

– بص أنا واثق فيك وف حرفيتك بس.. للأمانة الحلم دا راعبني.

– خير يا صابر فيه إيه؟

– بصراحة، باحلم إن المية بتجرفك وبتشدك لتحت، ركز يا ماجد في آخر كبسولة تجري ع الضفة بسرعة ما تفضلش في مجرى المية.

– ماشي يا عم مش فارقة.

– بطل هبالة، هانخلص المهمة ونرجع سوا، مفهوم.

– بإذن الله يا صابر، الله المستعان.

في الليل، والثواني تُسابق ذهنهما المتيقظ بفعل الأدرينالين الذي بلغ قمة فورته مع الإثارة المتصاعدة، حانت لحظة تنفيذ مهمةٍ تدرَّبا عليها طويلًا، مهمة إعادة توصيل شريان الحياة لمصر، وببراعة الجراح الماهر، وبعد أن اطمأنَّ النقيبان ماجد وصابر إلى انتهاء مهمة الدوريات الإثيوبية التي راقبا مواعيد مرورها في الليلتين السابقتين، انطلقا يعدَّان الخطوات، تسابق أنفاسهما خطواتهما، نزلا إلى المجرى المائي بحيث وقفا تمامًا في منتصف السد، ووضعا حقيبتي الظهر الصغيرتين في اتجاه صدريهما استعدادًا لتلقف الكبسولات وزرعها في جسد السد الشاهق أمامهما، نظرا إلى بعضهما البعض، وأعطيا لنفسيهما إشارة الانطلاق.

تسابق الاثنان في زرع الكبسولات وتثبيتها، بسرعة ورشاقة، يسابقان دقات الساعة، ودقات قلبيهما، يعدَّان الخطوات ليتعرفا على المسافات، ومع كل كبسولةٍ يتم تثبيتها، ترتفع معنوياتهما أكثر وتزيد حماستهما أكثر، مع تثبيت الكبسولة الثالثة، بدأ فتح الكبسولة الأولى لكل منهما، وسمعا صوت فرقعة، وشروخ تمتدُّ لأعلى وأسفل، لم يلتفتا كثيرًا، واستمرا في تثبيت باقي الكبسولات ولفِّها بحيث تفتح وتنشر المادة الكيميائية في جسد السد يعقبها صوتُ انفجار مكتوم، غرضُه توليد حرارة رهيبةٍ كعامل مساعد لتذوب الخرسانة المسلحة بالحديد بعد دقائق محسوبة بدقةٍ؛ ليتمكنا من إنهاء مهمتهما قبل وصول الدوريات، انطلقت أصوات الدوريات، وصفارات الإنذار مع أصوات الفرقعة المتتالية، وبداية تسرب الماء من جسد السد الذي بدأ يستسلم أمام المادة الجبارة، ومع كل انفجار كان النقيبان ماجد وصابر يُتمتمان بالحمد لله، والشكر للدكتور مهندس عبد الرحمن، صاحب هذا الاختراع

المصري الجبار، أنجز ماجد مهمته، وانتهى من تثبيت كل الكبسولات التي بحوزته، وركض نحو الضفة التي في ناحيته، قبل أن يلتفت ليرى صابرًا وقد ظهرت علاماتُ الهلع على وجهه بعد فشله في تثبيت آخر كبسولتين، لم يتردد ماجد وسبح في اتجاه صابر، وقد بدأت شلالات المياه المندفعة من السد المتصدع تُصعِّب مهمة وصوله إليه، أشار صابر إليه بأن يرجع، ولكن ماجدًا استمر في سباحته وسط الدوامات المتنامية، وأصوات صفارات الإنذار، وانتشارعربات الجيش الإثيوبي، لا يفكر إلا في الوصول لصابر، رفع رأسه وهو على بُعد خمسين مترًا من صابر عندما لوَّح له صابر بعلامة النصر، ثم احتضن الكبسولتين وألصق جسده في السد، ثم شغَّل جهاز التفجير في بدلته، في لحظات كان صابر قد اختفى وسط نيران التفجير التي سرعان ما فتحت الكبسولتين، فارتفع دخان أبيض بين لهيب الانفجار، واندفعت المادة الحارقة، الناتجة عن انفجار الكبسولتين، وتبعها انهيار ذلك الجزء من السد، وانهيار الماء بشكلٍ مُتدافع، مما سحب ماجدًا في دوامةٍ في اتجاه القاع، حاول ماجد أن يسبح بقوة، ولكن ثقل كثافة مياه النيل واندفاع الماء ورؤية صابر وآخر ما رآه من اشتعال صابر في الانفجار، وتطايُر أشلائه جعل مهمته في البقاء على قيد الحياة أصعب بكثير، ولكنه كافح كثيرًا، ليطفو إلى السطح، ويأخذ شهقاتٍ من الهواء المختلط بالماء، ويلمح عربات الجيش الإثيوبي تُهرع إلى مكان السدِ المُنهار، والأصوات تأتي وتخفُت مع محاولاته البقاء على سطح الماء ولكن كتل الخرسانة من السَّدِّ المُنهار هي أيضًا جُرفت معه، وأصبحت تقذف باتجاهه وترتطم بقوة بجسده، وتسحبه معها إلى القاع، وتحجزه بعيدًا عن الهواء والسطح، في دوامات قوية قاتلة.

عصا أبنوس أم شجرة صفصاف!

فتح ماجد عينيه بصعوبة، لا يكاد يصدق أنه ما زال على وجه هذه الأرض، وهذه السماء فوقه تنتمي لهذا العالم، يحاول أن يسير في طُرقات عقله المظلمة يراجع آخر ما حدث له، وكيف أخذ زادًا قليلًا من الهواء، ولوَّح للعالم سلامًا أخيرًا قبل أن يرتطم وجهه بقاع النيل، ثم جثمت مياهه الثقيلة فوق صدره، ونفد زاده من الهواء، ولكن قوة هائلة دفعته لأعلى في حين كان يلفظ أنفاسه الأخيرة، بينما كان عقله يهيئ جسده للغرق، ويأمر رئتيه أن تكفا عن التشبُّث بالحياة، وكان قد أغمض عينيه في ظلمة النيل المهيب، وأسلمَ جسده لتياراته القوية، وغدا مستعدًّا ليكفنه ماء النيل الذي دفع صابر حياته ثمنًا له، فإذا بيدٍ قوية تنتشله من القاع ليرى النور من جديد. لا بد أنه ظَلَّ يُصارع النيل لوقت طويل، ففقد وعيه بمجرد أن حملته هذه اليد ليتنفس من جديد وسبحت به إلى اليابسة.

تُرى كم مَرَّ عليه من الوقت وهو مستلقٍ وسط أوجاعه.. استيقظ والألم يكاد يعتصر صدره، فلا يتسع إلا لأنفاسٍ قصيرة متلاحقة، لا بد أنه قد كُسر ضلعان له أو أكثر، يحاول أن يتكئ على كتفه السليمة ليحرك كتفه المخلوعة، أسند ضلوعه بيده ليبعد أظفار الألم التي نشبت في صدره في محاولةٍ منه ليلقي نظرة على قدميه اللتين اشتعلتا كجمرتي نار من الألم، لا يستطيع أن يحركهما، كأن عقله قد فَقَدَ السيطرة على ساقيه فلم تعودا تستجيبان لأمره بالتحرك.. كان يجرجر جسده المتهالك ليسند رأسه على صخرة خلفه ليتكئ عليها حين لمحها هناك.. خيال امرأة، تقف على إحدى الصخور، ولا تكاد تستر جسدها إلا بالقليل من القماش، تُحدق إلى الأفق، عندما رآها واقفة هناك أعاده منظرها في عقله إلى أشجار الصفصاف في حديقة بيت والده.. وتذكر كيف اعتاد أن يراقبها ليلًا من نافذة حجرة نومه في طفولته، ويشعر بها تتحرك وتقترب من نافذته.. بساقها الطويلة الرفيعة وأوراقها الهزيلة.. ثم لا تلبث خيوط الفجر أن تعيدها إلى مكانها في الحديقة قبل أن يستيقظ أهل البيت.. فيُهرع كُلَّ صباحٍ قبل ذهابه إلى المدرسة ليحاول أن يجد آثار حركاتها المسائية.

التفتت إليه بوجهٍ يحمل ملامح أفريقية حادة.. شفتين غليظتين بلون الليل، وعينين واسعتين تحدقان إلى روحه، وتنفذان إلى خلاياه، فتسري فيه رجفة لا يدري أيرتجف خوفًا أم وجعًا.. عنقها كجذع شجرة قد انزرع بين كتفين دقيقتين، عارية الصدر إلا من غلالة رقيقة تبدي أكثر مما تستر، وساقاها

الطويلتان كفرعي شجرة، وقد لفت قدميها ببعض القماش السميك، بدت أمامه كأنها منحوتة أفريقية من شجرة عتيقة، أغمض عينيه المتعبتين، وابتلع ريقه.. وعندما فتحهما كانت تقف عند رأسه تمامًا.. حاول الحراك، ولكنها جثمت فوق صدره، علا صراخه الذي تردد بين حنايا الجبال السوداء التي تشهد ذعرًا لم يختبره من قبل قط. دار في خلده الكثير من السيناريوهات المرعبة والقصص التي قرأها عن بعض القبائل الإثيوبية، تمنى لو أنها تُجهز عليه دون عذاب، ليتها تنتهي منه سريعًا، يكفيه صراعه مع النيل، ومكابدة مشاعر الغرق، ووجع كسر ساقيه وخلع كتفه، وفراق صابر صديقه عند السد، ها هو ينتظر الموت مجددًا، لا يدري كم مرة عليه أن يموت قبل أن يموت! ولكنها مسحت على رأسه، فارتدت إليه بصيرته.. وهدأ قليلًا، ثم فكَّر، كيف وهو الضابط المحنك الذي نفذ مهمته على أكمل وجه أن يرتجف الآن أمام هذه المرأة؟! عليه أن يتمالك نفسه الآن في حضورها المخيف، ويُعيد إلى ذاته رباطة جأشها، إن كان ميتًا لا محالة، فليمت بشرفٍ وثبات، ولكن يبدو أن عجزه عن الحركة والآلام التي تغزو جسده وتُزلزل روحه وقسوة النيل معه قد جرفت الكثير من قُدراته القتالية التي تدرَّب عليها طويلًا، كان الخوف يعبر مسافات واسعة في حقول عقله ويحرق ثباته، لكن هزيمته أمام الألم كانت الأكبر، حاول أن يتخلص من قبضتها بهلع واضح، فمدَّت يدها بهدوء، وأسكتت صُراخه براحة يديها برفقٍ شديد. كانت رائحتها كخشب الصندل المحترق في مبخرة جدته التي كانتْ تُعبِّق منزلهم كل مساء فتضفي راحةً نفسية على المكان، ويغرق هو لساعات في تأمل رقصات الدخان

المتصاعد من المبخرة.. كجسدٍ يتلوى مع لهيب النيران.. ليتلاشى في الهواء كأنه لم يكن.

- أنا أكيد محموم.

غمغم لنفسه منتفضًا، كأنه ينفض عنه تداعي الذكريات.. أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، تحجرت عضلات رقبته وهو ينتظر أن تُجري سكينها لتنحره، لم يشعر إلا بيديها تمتدان لكتفه المخلوعة لتسحبه للأمام، وتلفَّه للداخل في حركة سريعةٍ أفقدته الوعي من حِدة الألم.

وهج

لا يدري كم مَرَّ عليه من الوقت وهو مُمدَّد يهذي من الحمى والوجع، ولكن عندما استيقظ كانت عباءة الظلام تلفُّ المكان، ولم يبقَ إلا ضوء القمر يُلقي تعويذته على ذلك الظل الواقف هناك.. كانت تبدو من بعيد كعصا الأبنوس التي كان يحملها والده.. عصا القيادة التي لازمته منذ أن أصبح عميدًا.. والتي أعادوها إليهم مع جثمانه بعد وفاته في القاعدة الجوية منذ أكثر من خمسة عشر عامًا.

اتكأ على ذراعيه.. لا بد أنها جرَّدته من ملابسه، ولفَّت غلالة من القماش حول خصره بصعوبةٍ تغطي عورته.

اقتربت منه وجلست بجواره، ونظرت إليه نظرة تتفقد جسده المهترئ، وضعت بعض المعاجين ذات الرائحة النفاذة على جسده، ثم قرَّبت بيدها إلى فمه ملعقةً بعد أن أسندت رأسه في حجرها، كان مستسلمًا لها كطفل يحتضن عجزه بعد أن هدأ عنه الخوف، وبقي أن تغادره الحمى والآلام.. لاحظ

وجود شيء كالطين على رأسه وجبهته والكثير من الطين وأوراق الشجر ذات الرائحة النفاذة على صدره وضلوعه المكسورة.. أما قدماه فقد رُبطتا إلى فرع شجرة رفيعة، وقد دُهنتا بمادةٍ لزجة، وآلام الكسر تنبض في نخاع عظمه المهترئ، وقد توقف النزف من جرح رأسه، وبقيت بعض آثاره تشدُّ جلده، وقد عصبته تلك المرأة بعصابةٍ من القماش السميك.

رفع عينيه إليها:

– أنا متشكر.. انك رديتي كتفي، أنا كنت خايف أحسن...

Can you speak English?

لم تتغير ملامح وجهها:

قرب إصبعه إلى أذنيه.. انتي سامعاني؟؟

عاجلته بملعقة أخرى في فمه.. همس لها:

– كتر خيرك.. شكلك مش فاهماني، بس كتر خيرك أنا ممتن ليكي إنك ساعدتيني وعالجتيني و..

أسندت رأسه على الأرض وهبَّت واقفة.. واختفت عن ناظريه.

لا بد أنها الشبح ذاته الذي انتشله من قاع النيل، وهي الآن ترعاه وتداويه، وتؤمِّن له الغذاء والدواء، تبدو وهي تقف هناك عند صخرتها تُحدق يمنة ويسرة كما لو كانت تراقب الأنحاء لتحميه.

– حدَّق إلى السماء.. وجسده يرتعد من تأثير الألم والحمى، وانهمرت دموعه.

– أنا عايش.. الحمد لله يا رب إن أنا عايش.

همس للنجوم التي تتراقص في عينيه:

– أنا عايش يا سارة، لؤي.. ملك.. بابا عايش.

ضحك في ذهول، ولكن ما لبثت ضحكته أن وُئدت في أكفان الوجع.

– أنا آسف يا صابر.. أنا آسف، إنت كنت عاوز ترجع، أنا آسف إني عايش من غيرك، هوا ربنا اختارك للشهادة، أنا بجد آسف يا صابر.. آسف، إني عايش.

ظل ينتحب في سكون الليل حتى تكوّر على نفسه، وغطَّ في نوم عميق.

مرَّت الأيام التالية هادئة، على وتيرة واحدة، يتعافى فيها ماجد ببطء، يحاول أن يتفاعل مع هذه المرأة التي أصبحت تقضي معظم وقتها على ذات الصخرة على بُعد خطوات منه، تُحدق إلى الأفق كأنها لوحة مرسومة لامرأة إفريقية، يجلس هو يتأملها ساعات وتُبحر به عائدة إلى أشجار الصفصاف في حديقة والده فتعيده على قيد الحلم بالعودة، لا تقترب منه إلا لتطعمه من طعام مهروس بدأ يستسيغه أخيرًا، أو لتضع على جسده العليل بعض معاجين الأعشاب، أصبح يدرك اقترابها وهو مغمض العينين من رائحة الصندل التي تتوغل برفقٍ في ذرات الهواء حوله، فيفتح عينيه ويبتسم لها، فترد عليه بابتسامة هادئة.

مع مرور الوقت، أصبح يفتقد الحديث، يتمنى لو يتبادل الحديث مع أي أحد، لم يسمع صوت آدمي منذ فترة، يشعر أنه يفقد أبجديته رويدًا.. شوقٌ عاتٍ للتواصل مع البشر، لم يعد يدرك الأيام، ولا يستطيع أن يجزم كم مَرَّ عليه من الوقت منذ إنجاز المهمة، لا بد أنه قد أمضى - على الأقل - ثلاثة أسابيع منذ انهيار السد، وإنقاذه بواسطة شجرة الصفصاف تلك، لو أنها فقط تستطيع الكلام معه، لو أن هناك لغة تجمعهما، حتى لغة الإشارة لا تصل إليها، تكتفي بصمتها وابتسامتها الهادئة.

ولكن في ذلك المساء جاءت تلك المرأة على عجلٍ.. تهلَّل وجهه لرؤيتها، فهي كل البشر بالنسبة له الآن، ولا يعرف إلى متىً سيستمر هذا الوضع، ومتى سيسترد عافيته ليمضي في طريقه.. ولكنها في ذلك اليوم كانت تبدو على عجلةٍ من أمرها، أنهضته وأعطته عصا ليتكئ عليها ولفَّت ذراعه خلف عنقها.

سألها بحذر:

- إحنا رايحين فين؟

كانت تختلس نظرات للسماء وتهمهم بما لا يفهمه..

أراد أن يستفسر منها عن الكثير، ولكن ترى، هل تنجح معها محاولاته مجددًا لخلق لغة يتفاهم بها معها حتى ولو كانت أبسط من لغة الإشارة؟ ليقطع القلق الذي بدأ يلتفُّ حول صدره مع الألم الذي يتصاعد مع المشي بتلك السرعة، بدأ الكلام:

أنا ماجد.

مُشيرًا بإصبعه إلى صدره.. إنتي.. اسمك.. إيه؟ إسمك؟؟ قبيلة؟ من أي قبيلة؟

ربما يساعده معرفة اسم قبيلتها في تخيُّل أين جرفه النيل من دراسته لديموغرافية إثيوبيا، كان ممكنًا أن يكون الأمر أيسر لو أنه لم يفقد حقيبته التي تحوي جهاز الـ GPS.

وبعد أن يئس من أن يتلقى إجابة عن هذه الأسئلة البسيطة قرَّر أن يتابع كلامه دون انتظار ردٍّ كما كان هذا ديدنه في الأيام السابقة:

– بافكر أسميكي اسم.. إنتي بتفكريني بأشجار الصفصاف مش عارف ليه يمكن عشان يعني جذعها رفيع زيك! مش عارف بجد! وبتفكريني بعصاية أبويا الأبنوس.. كانت هدية لأبويا من السودان على فكرة.

ولكنها في ذلك اليوم كانت مختلفة، لم تكن تلقي له سمعًا كعادتها، بل كانت مشغولة بأمر ما في السماء، فكانت ترفع بصرها إلى أعلى وتشير إلى الغيم المتكاثف، ثم تزمجر وتهمهم كأنها تستحثُّه على سرعة المسير، ولكن ما تخشاه قد حدث.. أضاء البرق وجه السماء، وتَبِعَه غضبُ الرعد، ثم انهارت الغيمات في بكاء شديد. هي تستحثُّه ليسرع الخَطى، وهو يحاول أن يتحامل على نفسه من ألم ساقيه المكسورتين اللتين لم تتعافيا بعد، فلفَّت يدها الأخرى حوله تُخفف من وزنه على قدميه المصابتين، حتى دخلا إلى أحد الكهوف في الجبل.

جلسا يلتقطان أنفاسهما بعد السير مدة ساعة في الأرض الوعرة، وبحالته الصحية السيئة وحالة قدميه المصابتين كانت تلك المرأة تكاد تحمله طوال الوقت، فبدت عليها علامات الإجهاد.

كانت درجات الحرارة تنخفض بجنون.. وأصوات الرعد بالخارج تُحطِّم الصمت الذي ساد بينهما، وألسنة البرق تمتدُّ لتنيرالكهف، ثم لا تلبث أن تنطفئ. دبَّت في جسده رعشةٌ من البرد والبلل، فقرَّبته المرأة إليها لتدفئ جسده الذي ازداد نحولًا بجسدها الدافئ.. وأخذت تمسح عن وجهه قطرات المطر التي تتقاذفها الرياح إلى داخل الكهف.. هدأت الرعشة، ولكنها أشعلت فيه نارًا بدفء جسدها لا يدري كيف يخمدها.. تلاحقت أنفاسه وصدرها يعلو مع صدره وينخفض في إيقاع واحد كراقصين على موسيقى التانجو.. وقد دفن أنفه في عنقها يتنسم عبير الصندل.. يتنفس دفأها إلى داخله، فترحل به إلى غابات النشوة، أطلق آهة فاحتضنت وجهه بكفيها وقرَّبته إليها تتفرس في ملامح وجهه في ظلام الكهف.. تحاول أن تدرك ما أصابه.. عالق هو في شعاب طريق.. وقد أضاع بوصلته، وأضرم نارًا لا يعرف كيف يطفئها، قد تحرق سفينته فيهوي إلى قاعٍ ليس منه فكاك. مَرَّ بيده على ملامح وجهها كأنه يتأمله ويحفظه بذاكرة يده.. وهو لا يكاد يراها في ظلمة الكهف المطبقة، فأغمضت عينيها وارتعدت بين يديه.. في أحضانها كان يدفن أوجاع الأسابيع الماضية، وهي تهمهم بأغنية أفريقية تبدو كترنيمة هادئة ساحرة، وتضمُّه إليها بذراعيها، وتربت على ظهره، وتمسح على رأسه، كأنها تتبتل في محرابه، فتشعل ناره، وتذكي جذوتها بلمساتها الحانية، فيزداد عطشه إليها،

وقد توغلت رائحة الصندل في حنايا قلبه، وامتلأت روحه بدفئها، لكنه أبعد جسده عنها، واعتدل جالسًا، وعاد يلاحق أنفاسه التي تخلع صدره ودقات قلبه تكاد تزلزل المكان.

كان المطر قد هدأ، وتوقفت أنَّات السماء تحت سياط البرق، وهدأت أنفاسه المحترقة..

طأطأ رأسه:

- أنا آسف، أنا..

ردَّت لأول مرة بصوت حنون متكسر:

- ماجد!

التفت إليها متهلِّلًا:

- أيوه أنا ماجد.. وانتي؟ اسمك؟

كان يشير في فرح ولا يكاد يصدق أذنيه، وهو يسمع صوتها وبراعم الحوار تُزهر بينهما للمرَّة الأولى.

أطرقت في خجل:

- بيرسينّا.

ألفة

استطاع ماجد بعد أربعة أسابيع أخرى أن يقف على قدميه بمساعدة عصا نحتتها له بيرسينّا من فرع شجرة قوية.. وبعد أسبوعين آخرين تمكَّن من المشي متكئًا على عصاه، وإن كان يبدو منثنيًا كجذعٍ منكسر، ولكنه استطاع أن يتجوَّل بصحبة بيرسينّا في الجبال السوداء، يتعافى ببطء متأبطًا اهتمام بيرسينّا به، وببطء يرتبط بها أكثر فأكثر، كان يحاول دائمًا أن يتواصل معها، فكان يحكي لها عن كل ما يدور بخلده، عن عالمه، نفسه وأسرته، كانت تُعيره اهتمامًا شديدًا، وتُصغي له وهي تثبت عينيها في وجهه بشغفٍ، وروحها الشفافة البكر تحتويه وتأسره، فيدور في مدارات ولعٍ لم يطأها من قبل، يعشق روحها، ويتمنى لو ينحني فيحتضن قلبها.

– إنتي فاهماني؟ صح؟

وكانت تهزُّ رأسها بالإيجاب، وملامح وجهها تحثُّه أن يكمل حديثه، وفي كثير من الأحيان تتحدث هي فيأتنس بمجرد سماع صوتها، دون أن يدري

ما تقول. هو لا يملك شفافيتها، ولا قُدرتها على فهمه، ولكن حدسه وقلبه يؤكدان له أنها تفهم كل كلمة يقولها.

بعد أسبوعين، فاجأ ماجد بيرسينّا عند قدومها بالطعام من قريتها التي يبدو أنها على مقربة من مكان وجوده، فاجأها أنه تمكَّن من المشي وحده، وإن كان بعرج واضح مستندًا إلى ركبته، فانفرجت أساريرها، ودارت حوله تترنم بأغنية تبدو كأنَّها صلاة شكر. وأصبحت تشاركه الطعام ويشاركها التأمل على الصخرة.. ورغم أنها كانت سابقًا تتركه كل مساء عائدة إلى قريتها، إلا أنها أصبحت تقضي بعض الليالي معه دون أن تعود، يأخذهما الكلام، وأحيانًا مجرد التأمل الصامت إلى لحظات الفجر الأولى، فيأسرهما شعاع الفجر الذي يُبدد عتمة الوجود، حتى تُداعب النسمات جفون ماجد فيستسلم للنوم، وتعود هي بطعام الفطور بعد ساعات.

استرجع ماجد كثيرًا من قُدراته، وما تعلمه من حياة الصحراء في الجيش، فأضرم نارًا، وساعد بيرسينّا في الحصول على طعام بالصيد، كان يُحدِّثها كثيرًا عن نفسه وعن عائلته وذكرياته، كأنه يحاول أن يبقي ذاكرته على قيد الحياة، لا يدرك كيف تفهمه، ولكن ملامح وجهها تطمئنه أنها تسعد بصوته وحكاياته، ودَّ لو يحملها على الكلام أكثر عن نفسها، ولكن كان يعرف أن هذه الطريق غير مأهولة، فهو لا يفهم لغتها، ولا يملك قُدرتها على فهمه.

شيئًا فشيئًا كانت الكيمياء بينهما تمتزج، وتغزل بينهما أبجدية جديدة، لحظات فريدة من التواصل بالروح، كانت نظرتها إليه تتوغل في قلبه، تمرق

إلى كيانه، تحيك له قميص يوسف فيرتد إليه بصره وعافيته، وتخرجه من بئر أوجاعه. وحين يأخذه الحنين إلى أسرته، كان يحكي لها، فتسمعه بحواسَّ خفية تمتلكها تلك المرأة الشفافة كقطرات الندى، ويبكي بين يديها كطفل صغير على استشهاد صابر، فتُهدهده وتمسح دمعه، وتحتضن فَقْدَه، فينهل من دفئها، ويستكين لرائحة الصندل النابعة من جسدها البهي رغم اقترابه من لون الليل في الصحراء، وأصبح يحفظ أهازيجها التي تغنيها فيغنيها معها، فيشرق وجهها بالسعادة وتبكي فرحًا لقربه منها. لم يعد يتخيل أن يفارقها، ممزق هو بين رغبته في العودة لمصر بلده وعائلته، وبين بيرسينّا، تلك الروح الطيبة التي أصبحت تحتلُّ فؤاده، ويمتزج ولعُه بها بذرات كيانه.

قرَّر ماجد ذات صباح بعد أن سهر ليله يفكر:

– بيرسينّا.. بيتهيألي كدا.. جه الوقت.. إحنا لازم نروح السودان.. بيرسينّا.. السودان ومنها هانروح مصر، هاتيجي معايا، انتي فاهماني؟

نظرت بعينيها النافذتين إلى روحه، ثم أطرقت، وتدحرجت دمعات على وجنتيها.. لفَّ ذراعه حول كتفيها، وضمَّها إليه، فأسندت رأسها على صدره، واستكانت روحها، ورائحة الصندل تبعث فيه حنينًا ليقبل شفتيها وشوقًا لأن يحفظ تضاريس جسدها بيديه، مسح دمعها، وغنى لها أهازيجها التي تعلمها منها، وظَلَّ ذلك الصباح يناديها باسمها الذي صار يعشق حروفه، ويكلمها عن رحلتها إلى مصر، وعندما انتصف النهار، أنزلت

ذراعه وانتزعت رأسها من أحضانه ونهضت عنه، مضت كأنها تُجرجر قلبًا منهزمًا، وروحًا عليلة، كان يراقبها تختفي من ناظريه، ولم يجرؤ أن يناديها لتعود، وهي ولم تنظر خلفها.

غابت بيرسينّا ذلك المساء، وانتظرها أن تأتي في الصباح كعادتها ولكنها لم تأتِ.. أخذ يذرع المكان ذهابًا وإيابًا، والقلق يقتات على أفكاره، تُرى، هل حدث لها مكروه؟ هل أصابتها حادثة؟ هل قررت أن تتخلى عنه؟ هل منعها أفرادُ قريتها من القدوم إليه؟

غمغم قائلًا

– أنا زعلتها، أكيد طبعًا فهمت إني هامشي.. مش هاترجع.. هاتسيبني!

نادى بصوت متهدج تردَّد رَجْعُه بين الجبال الصماء.. بيرسينّا؟ يمكن حصل لها حاجة؟ يا رب دلّني.. أدور عليها؟ وللا دا ممكن يعمل لها وليا مشكلة؟

وبينما هو يتخبط في أمواج أفكاره المتلاحقة.. وجدها أمامه تجرُّ وراءها حمارًا، وتحمل حقيبته الصغيرة التي كانت معلقة بكتفه عندما انتشلته من قاع النيل.

ضمَّها إلى صدره، وعانقها بقوةٍ، واعتصرها بين ذراعيه.. ثم ابتعد قليلًا يتأمل ملامحها، وقد حُفرت في عينيه وحنايا روحه، قسمات وجهها التي طالما احتضنها بعينيه، وأصبح يراها حتى وهو مغمضٌ عينيه.

– بيرسينّا، مكنتش متخيل إني ممكن ما اشوفكيش تاني، بحبك، باموت فيكي.

قرَّبت إليه حقيبته ففتحها، وأخرج منها جهاز ال GPS وجلس على صخرتها التي طالما تأمَّلا منها النيل، جلس ماجد يحسب الإحداثيات، ويخزن في عقله خطوات العودة، اقتربت منه ووضعت يدها على كتفه، رفع عينيه فالتقتا بعينيها الدامعتين فابتسم:

– هاتيجي معايا.. هانمشي سوا، مش هانسيب بعض تاني.. أبدًا.

العودة

في الصباح جاءت بيرسينّا ببعض الطعام للرحلة، وبعض الملابس لتستر جسده الذي بدأ يتعافى ويقوى من جديد، إلا من إصابة قدمه التي لم تتحسن للأسف، بل أصبحت عرجته واضحة مع مشيته بدون عصاه. ساعدت بيرسينّا ماجدًا على ارتداء ملابسه، ثم ركب الحمار، ومَدَّ يده لها ليساعدها لتصعد هي أيضًا، ترددت قليلًا، فناداها:

– بيرسينّا، أنا مش هامشي من غيرك.

دارت بعينيها تتأمل المكان، كأنها تُودِّع قِطعةً منها، وتتراءى لها ذكرياتها مع ماجد في الشهرين الماضيين، فتبتسم، ثم تتأمله وتنظر إلى الصخرة التي طالما تأمَّلا منها النيل، مشت خطوات حول المكان، تشير بيدها وتتمتم، وماجد يتأملها بغبطة، وعيناه تبتسمان لها، ولا يتركها تغادر بصره، ثم صعدت خلفه، وأمسك ماجد بزمام الحمار، وسارا في اتجاه الحدود السودانية.

أمضيا في الطريق ثلاث ليالٍ، كانا يسيران فيها بالنهار ويستريحان ليلًا.. يتناولان القليل من الطعام والشراب.. هو يحدثها عن كل شيء كعادته، وهي

تستمع وتبتسم، تعانق وجهه بعينيها، تتأمله بشغف، يضحك فتضحك، ويبدوان كأن الزمن قد توقف ليمنحهما بعض السعادة الخالصة رغم مشقة الطريق، تختلط الساعات بينهما بصمت موصول يختصر الأبجدية، تتعانق فيه أعينهما، وتسافر فيه نظراتهما إلى مُدن العشق يغتسلان في شلالات الروعة، ويعودان كطائرين على موعد مع الرحيل.

سارت به بيرسينّا في طرق مختصرة لم يتعرف عليها جهازه، ودارت به في مدارات يطرقها فقط من يعرف كيف السبيل. لم يكن ماجد يفكر في صحة الطريق، ولم يجادل في الإحداثيات التي يُدرك أنها أمهر من جهازه في معرفتها، كان يأتمنها على حياته، فكيف يُجادلها في اتجاهات المسير! كيف لا وهي ملاكه الذي أنقذه من موتٍ مُحقَّق، كان يستمتع بصحبتها، ويتحاور معها، ويقرأ ردودها في ملامحها دون كلمات.. يخاطبها مازحًا:

– هاتعلم أثيوبي عشانك، وهاعلمك عربي، عارف إني معاكي مش باحتاج كلمات يا بيرسينّا، عشان حاسس إنك توأم روحي، اللي بيننا أكبر من الحروف، وأحلى من كل الجمل.

كان يطمئنُّ إلى وجودها خلفه تحتضن ظهره بدفء جسدها، فيسري دفؤها إلى روحه، ويتنسم رائحة الصندل في جسدها، فتتوغل في ذرات كيانه، تُبعثر مشاعره، وتغزو أروقة قلبه، تحتلها برقَّتها وحنانها عليه ورعايتها له، لم يعد يعنيه كم مَرَّ عليه من الوقت، ولا يستعجل العودة إلا وهو يدرك أنها لن تغادره، ستكون له، ولن يفترقا، فقد أدمن رائحة الصندل ودفء أشجار الصفصاف.

عندما وصلا إلى الحدود السودانية تهلَّلت أسارير ماجد:

– الحمد لله هانت قوي.

أصدرت بيرسينّا صوتًا، فتوقف الحمار، وقفزت هي إلى الأرض.

نظر إليها ماجد بفزع:

– فيه إيه يا بيرسينّا؟

اتكأ قليلًا وقفز ببطء واقفًا أمامها وأمسك بذراعيها:

– بيرسينّا.. اتفقنا هانروّح مع بعض.. ما تسيبينيش.. أنا ما اقدرش أعيش من غيرك.

ألقت ذراعيها حول رأسه، وضمَّته إليها، وجسدها يرتجف من البكاء كورقة شجر تحت أمطار الشتاء.. حتى روت صدره بدموعها. رفع رأسها إليه، فذابت شفتاها بين شفتيه، وذاق خمر ريقها فأسكرته، وبكى بين ذراعيها كطفلٍ يخاف يُتم الفِراق.

– بيرسينّا خليكي معايا، أنا عارف إني باطلب منك تسيبي بلدك، عارف دا صعب، بس أنا محتاجك بيرسينّا، أنا مقدرش أعيش من غيرك.. ما تسيبينيش.

مسحت دموعه بكفَّيها، ومسح دموعها بشفتيه، ذاق ملح البعاد في دموعها وهي تردد ماجد.. ماجد، ثم مسحت على رأسه، وابتسمت وسط دموعها وهي تستدير عائدة، تاركةً ماجدًا بين شقي رحى.. عودته، وفراقِها.

إنقاذ

ولا أدري

أَغَيْمُ الحنينِ أمطَرَني

أم ليلُ الشوقِ أضناني؟

وهل غيابُك حرّرني؟

أم أنّ البُعد سجّاني

دخلت سارة مسرعة إلى مستشفى الجلاء العسكري، تستبق الخطى لتلقي كل خوفها وقلقها على ماجد وراء ظهرها، ولتلقي بشوقها وحنينها إلى أحضان رفيق دربها، جاءت إلى المستشفى ومعها والدة ماجد، بعد أن أبلغها اتصال هاتفي من القيادة بوجود ماجد في المستشفى. كانت تُسرع الخطى وهي تتفرس في أرقام الغرف، وقلبها يتراقص من الفرحة والقلق، تُرى، ماذا أصابه ليرقد في إحدى غرف المستشفى؟ لماذا لم يعد مباشرة إلى المنزل؟

ولكنه على قيد الحياة، هذا هو المهم الآن، ماجد عاد. التقتا الطبيبَ خارجًا من غرفة ماجد، دخلت سارة مسرعة، بينما وقفت والدته مع الطبيب:

– خير يا دكتور؟

– الحمد لله يا فندم حالته مستقرة دلوقتي.

– هوا إيه اللي حصل؟

– مفيش يا فندم غالبًا هو تاه عن زمايله في سينا، واتكسرت رجليه الاتنين كسور مختلفة، وقعد مدة طويلة أكتر من شهرين في وجود جروح وكدمات وكسور في جسمه من غير علاج، الكسر في رجل من رجليه لحم غلط وهانحتاج نعمل عمليات ونركب شرايح ومسامير، وهو وصل لنا عنده جفاف شديد، بس الحمد لله أجهزة جسمه الداخلية كلها سليمة، قدر ولطف يا هانم.

دخلت الأم مُسرعةً لتجد سارة مرتمية في أحضان ماجد تبكي بمرارة وتُقبِّل يده، اقتربت منه بخطًى مرتعشة، لا تُصدِّق أنها ستضمه لصدرها من جديد، بعد أن ترامت الأنباء أنه قد فُقد وفي الغالب.. مات، وضعت كفَّها على رأسه ومسحت عليه، ابتلعت ريقها وهي تعاند الدموع التي تأبى إلا أن تفيض من مآقيها رغم فرحتها بعودة ولدها الوحيد، لا تدري أهي دموع الفرح أم الخوف عليه وهو يبدو شاحبًا عليلًا أم تبكي فَقْدِها لوالده.

– حمدًا لله على سلامتك يا قلبي، حمدًا لله على سلامتك يا حبيبي، أنا مش متخيلة إني كان ممكن أفقدك يا قلبي، بلغونا إنك مفقود من أكتر من شهرين، وما بطلناش دعا ترجع لنا بالسلامة.

تهللت أساريره لرؤية أمِّه، وابتسم لها بهزال واضح:

– أمي.. وحشتيني.

انهارت باكية:

– حمدًا لله على سلامتك يا حبيبي، كنت عارفة، ربنا مش هاياخدك مني يا نور عيني، ربنا عالم بحالي من غيرك يا بني يا غالي، الحمد لله اللي رجعك لينا سليم.

سليم!

أغمض عينيه وتمتم:

– الحمد لله.

من يدرك أن قطعة منه غادرته للأبد، قد ترك بعضه على الحدود السودانية الإثيوبية، لا يدري كيف وصل إلى السفارة المصرية في السودان، دون أن يهتم بأن يأكل أو يشرب، كان يهرب من فِراقها ويتلمس رائحة الصندل العالقة في كفيه وجسده، عندما وصل إلى السفارة المصرية في الخرطوم كان شبحًا لبقايا إنسان. نُقل بطائرة عسكرية إلى المستشفى بأسرع وقت، عُولجَ من الجفاف والتقرحات في سائر جسده، وها هو يستعد لسلسلة من العمليات في ساقيه.

طرقات على الباب، ثم دخل عسكري إلى غرفة المستشفى، واستأذن الحضور أن يغادروا الغرفة لمدة خمس دقائق حتى يتمكن العميد سامح من زيارة النقيب ماجد.

طوقت سارة ماجدًا بذراعيها قائلة:

– مش هاروّح، هاستنى برا يا قلبي لحد العميد سامح ما يمشي.

التقى العميد سامح والدة ماجد على باب الغرفة:

– أهلًا أهلًا يا درية هانم، أم البطل وزوجة أعز الصحاب.

أومأت والدته مبتسمة:

– أهلًا أهلًا يا فندم، أنا عارفة طبعًا ماجد زي ابنك علي بالظبط يا سيادة العميد، ربنا يكرمكم ويحفظ كل الولاد يا رب.

دخل العميد سامح وطلب من العسكري أن يقف على باب الغرفة، وبمجرد أن غادر الجميع، احتضن العميد سامح ماجدًا بقوة، وقبَّله على جبهته، وشدَّ على كتفيه قائلًا:

– حمدًا لله على سلامتك يا بطل، حمدًا لله على سلامتك يا بني، دي معجزة، إنت مش متخيل فرحتنا كلنا، الشعب المصري والقيادة ممتنين للي عملتوه إنت و.. المرحوم صابر.

الريس بنفسه لو يقدر ييجي كان جه يا ماجد، انت بطل بكل معنى الكلمة، طبعًا لما تقوم بالسلامة هايبقى فيه تكريم على إنك من أبطال حربنا ع الإرهاب في سينا، وهاتاخد انت والشهيد صابر نوط الشجاعة من الدرجة الأولى.

رفع ماجدًا عينين دامعتين إلى العميد سامح:

– صابر كان أكتر من بطل، لما الكبسولة الأخيرة ما اتفتحتش حوِّل نفسه لكبسولة، شغَّل جهاز التفجير اللي في بدلته ولزق نفسه بالسد وهو حاضن الكبسولة، مافتكرش إن أنا كان هاييجي في بالي لحظة الحل دا وهوا ما اترددش حضرتك، كان جنبي، كنت باحاول أوصل له، وفجأة..

ضغط العميد سامح على كتف ماجد لتهدئته وقد علا نحيبه:

– هوّن على نفسك يا ماجد، صدقني صابر وعيلته جوا عنينا، هايبقاله معاش استثنائي، وهايبقى فيه قاعدة في سينا باسمه، وحاجات كتيرة في قريته، عاوزك تتأكد أنه هايفضل عايش بينا، الشهيد بيعيش خالد الذكر يا ماجد يا بني، واللي عملتوه إنت وصابر عمل استثنائي بمعنى الكلمة.

انت أنقذت البلد من خطر الجفاف، والكابوس دا خلاص انتهى، بحل ولا أروع. أنا بس جيت انهاردة عشان أطمن عليك وأبلغك شكر وامتنان القوات المسلحة ومصر كلها، لما تشد حيلك وتخرج بالسلامة لينا قعدة مطولة، هانكتب كل تفاصيل المهمة بالتفصيل ونسجلها بحذافيرها بكل النقط اللي عملتوها ومريتوا بيها، بس هأكد تاني إنه مش مسموح الكلام عن أي تفاصيل، إنت فُقدت مع صابر في سينا، وتم العثور عليك بعد مقاتلتك لإرهابيين والقضاء عليهم، وصابر استشهد في سينا، مش أكتر من كدا. أشوفك على خير يا بطل.

أشجار الصفصاف

تتراءَيْنَ طيفًا
كلما أغمضتُ عيْني
واستيقظَ فيَّ حنيني
تتهادينَ صَيفًا
دفءُ شمسُكِ بَيْني
وبينَ شتاءِ سنيني

أسندت رأسها على زجاج النافذة تتأمل زوجها الجالس في الحديقة حافي القدمين يُحدق إلى أشجار الصفصاف، وبين قدميه مبخرة الجدة القديمة، وقد أشعل بعض أخشاب الصندل، وجلس يحدق إلى اللاشيء. ودَّت لو أن روحها توغَّلت في نفسه وعرفت ما أصابه، ربما أقنعته بالعودة إلى حياته كما كانت من قبل، ربما جبرت تلك الكسور النفسية التي مُني بها في رحلته الأخيرة، وربما أضرمت نار شوقه إليها من جديد.

نادتها والدتُها وأبوها ليسلما عليها قبل انصرافهما:

– عاوزة حاجة يا سارة، ربنا يتم شفاه على خير يا حبيبتي.

نظرت سارة إلى والدها في قلقٍ:

– يا رب يا بابا، شوفت ماجد حالته بقت إزاي؟

قطبت والدتها عن جبينها وهي تهمس لابنتها:

– احمدي ربنا يا سارة إنه رجع بالسلامة يا ماما، بعد الشر عليكي يعني كنتي هاتبقي أرملة بعيّلين في سنك دا يا بنتي؟

جفلت سارة من الفكرة، هي لا تتخيل حياتها دون رفيق عمرها، ولكنها بصعوبةٍ تتعرف على بقايا الروح في جسد ماجد، عاد غريبًا كما لم يكن يومًا، وحيدًا كتائه في صحراء ذاته، ساهمًا كدرويش في سفر.

بعد رحيل أبويها كانت سارة ما تزال تحدق إلى ماجد عبر النافذة عندما وضعت حماتها يدها على كتف سارة:

– إيه الحكاية يا سارة؟ انتوا منورينِّي طبعًا بس مش عادتكم يا بنتي، هوا حصل حاجة بينكم لا سمح الله؟ أول مرة تقضوا وقت طويل عندي كدا! خير يا سارة؟

ابتلعت سارة ريقها وتنهدت مستديرة، وابتسمت ابتسامة باهتة، وملامحها المهزومة تشي بوجعها:

– مفيش يا ماما.

ولكن حماتها أمسكت بيدها وأجلستها أمامها وملامح القلق تحتل وجهها الطيب:

– لا إزاي! ماجد من ساعة ما رجع من سينا وخرج من المستشفى وهو مش طبيعي، أنا طبعًا فاهمة إن روحه في شغله، وموضوع رجله دا غالبًا معناه أنه مش هايكمل في الجيش بس لا، أكيد في حاجة أكبر من الموضوع دا يا سارة، زي ما يكون سرحان كدا ومش زي عوايده.

انفجرت سارة باكية وكلماتها تتعثر بين دموعها المنهمرة، وقد تآكل صبرها وانهزم ثباتُها:

– أنا ما بقيتش فاهمة حاجة يا ماما، الأول قال لي نروح عند ماما عشان السلم عندنا هايبقى صعب أنزل وأطلع ومواعيد العلاج الطبيعي ومشاوير الدكتور، وبعدين.. شجر الصفصاف.

– شجر الصفصاف؟ ماله!

– مش عارفة أقولك إيه..أنا هاموت يا ماما.. ماجد متغيّر، دا مش ماجد اللي روحه كانت متعلقة بينا أنا والولاد، مش ماجد إللي باحبه وكان بيقول لي باموت فيكي، بيبعد كل يوم أكتر م الأول، لما قولتله خلاص يا ماجد أنت بقيت كويس خلينا نروّح بيتنا.. قعد يتهرب مني وفي الآخر بص لي بصة عمري ما هانساها يا ماما.

اكفهرت ملامح الأم واتسعت عيناها:

– يعني إيه؟؟

أكملت سارة في حسرة:

– بصة تايهة، حايرة.. باصص لي بس مش شايفني، حسيت إنه.. بيكلم حد تاني وبعدين مشي من قدامي وبص م الشباك وقال لي مش هاسيب شجر الصفصاف يا سارة.. ماقدرش أعيش من غيره.

انهارت سارة على الكرسي واحتضنتها والدة ماجد تحاول أن تهدئ من روعها وتعتصر مُخَّها لتفكَّ الطلاسم التي تقولها سارة عن ماجد، لا تريد أن تُصدق أن ماجدًا ابنها وكل ما تبقَّى لها في هذه الحياة لم يعد كما هو، كانت تنفض عنها كلمات سارة رغم القلق الذي بدأ يحتل مساحات شاسعة في نفسها، بأحرف مرتعشة، قالت وهي تريد أن تمسك بزمام الحوار مع زوجة ابنها.

– هو بس متأثر نفسيًّا من حكاية قعدته في الصحرا تايه وللا مخطوف من الإرهابيين، وكمان استشهاد المرحوم صابر، دا كان صاحبه وحبيبه يا سارة.

رفعت سارة خصلات شعرها من فوق وجهها الباكي.. وأردفت تلقي كل هواجسها أمام حماتها:

– وحكاية البخور دي كمان.

– بخور إيه يا بنتي؟

تذكرت درية والدة ماجد طفولة ماجد، فانتشرت ابتسامة رائقة على وجهها وهي تقول:

– آه أنا أخدت بالي من ريحة بخور الصندل، بس هوا الحقيقة من صغره من أيام جدته الله يرحمها كان بيحب..

قاطعتها سارة:

– أنا مش مستحملاه، خانقني، مش عارفة ليه، بس شكل ماجد لما بيقعد مركّز في البخور يا ماما ودموعه نازلة، وبالليل وهو نايم بيقول كلمات غريبة، أنا عاوزة ماجد يا ماما، ماجد مارجعش، دا حد غريب مش عاوز يكلمنا ولا مستحملنا أنا والولاد.

ربتت درية على كتف سارة وهي تحتضنها بقوة، لتقتلع أشجار القلق التي كبرت في عقلها:

– استهدي بالله يا سارة، دي صدمة يا حبيبتي من اللي شافه في سينا، هايرجع تاني ويبقى زي الفل، كفاية أن ربنا رده لينا حبيبتي، دا وجوده وسطينا بالدنيا.

انسلت سارة من بين ملك ولؤي، وأخذت هاتفها، وأغلقت عليها غرفتها، واتصلت بصديقتها منال علَّها تجد عندها متنفَّسًا لما تعانيه مع ماجد، كانت منال تستمع لسارة وهي تخشى من انهيارها الوشيك، فهي تدرك مدى تعلقها بماجد، تكلمت سارة طويلًا، تقفز بين مواقف ماجد مؤخرًا ودموعه المنهمرة وبُعده عنها ورغبته في البقاء وحيدًا في حديقة منزل والدته، وبصعوبةٍ تستجمع منال الخيوط، ولكنها لا تقاطع سارة لتفرغ كل ما في جعبتها من

الوجع علَّها تهدأ وتعود إلى راحتها النفسية المفقودة منذ عودة ماجد، لا بل منذ اختفائه.

تنهدت منال ثم قالت بصوت واثق:

– سارة، ماجد محتاج طبيب نفسي، الموضوع أكبر منك.

استراحت سارة لرأي منال، ولكنها تلعثمت وهي تخبرها برأي منى صديقتهما المختلف عن رأي سارة تمامًا:

– مش هاتخسري حاجة يا سارة.. حاولي.

في صباح اليوم التالي تململ ماجد من وجوده وسط ولديه، وبدا شاردًا كأنه يستعجل ذهابهما إلى النادي للتمارين، ليخرج إلى حديقته ويختلي بأشجار الصفصاف الحبيبة، ويشعل بخور الصندل ويعيد ذكرياته مع برسينّا وصابر، أصبح يحتفظ دومًا بخشب الصندل في جيبه، يتشوَّق ليقضي وقتًا وحده ليخرج تلك الأعواد ويتنفسها كأنه يستنشق بيرسينّا إلى داخله، يُعيد ذكراها إلى الحياة، يستعيدها ويستدعيها من جديد في صباحاته، يشعر بدفئها في جسده وفي روحه، فيهدأ ويستعيد بعض رغبته في الحياة مؤقتًا.

تأهَّب الولدان للخروج، فانفرجت أسارير ماجد، كأنه على موعد للقاء الحبيبة.

وبعد أن سلّم عليهما واحتضنهما سار معهما نحو الباب، متعكزًا على عصاه، ثم دلف إلى باب الحديقة. ألقى عصاه على الأرض، ثم سار ببطء ينقل قدميه بحذر حتى لا يقع. بعد العديد من العمليات استطاع أن يقف منتصبًا، ولكن ما زال في مشيته بعض العرج.

تأنَّقت سارة، ولبست فستانًا يكشف كتفيها، ولا يغطي نصف ساقيها، وقد جلبت عطرًا شرقيًّا تغلب عليه رائحة المسك والعود، بعد أن لمست تغيُّر ذوق زوجها، فتعطرت ووضعت بعض المساحيق الرقيقة، ونزلت إلى الحديقة، تسبقها خصلات شعرها البنية، وقد زيَّنتها بمشط من اللآلئ الصغيرة، اقتربت من ماجد، في كان يجلس في كرسيه قريبًا من أشجار الصفصاف، كان يومها غارقًا في ذكرياته بين جبال إثيوبيا، وفي يده خشب الصندل يعتصره في كفِّه كأنه يُعانق بيرسينّا، من خلفه همست سارة بحنان:

– ماجد.

فالتفت ماجد مذعورًا:

– بيرسينّا!

– مالك يا ماجد يا حبيبي.. معقول اتخضيت مني، جلست تحت قدميه، تنظر إليه بعينين حانيتين رغم غرابة ردِّه عليها، إنت قولت بيرسينّا؟ يعني إيه الكلمة دي؟ إنت ساعات بتقول الكلمة دي وانت نايم، يعني إيه يا ميجو؟

ردَّ ماجد مقتضبًا:

– انتي ماروحتيش النادي مع الولاد ليه؟

– ماما راحت معاهم، وكنت عاوزة أقعد معاك براحتنا.

ولكنه تململ من جوابها، لا يدري كيف يحملها على أن تتركه وحده مع أشجار الصفصاف:

– ماما مش هاتقدر عليهم يا سارة، كان لازم تروحي معاهم.

– ميجو حبيبي إحنا مع بعض دا الأهم.

– لا يا سارة كان لازم تروحي معاهم.

اختنقت سارة في دموعها، وهي تحاول أن تتماسَك، رغم ألمها من حنق ماجد لوجودها، ولكنها قالت وهي تضغط الحروف من الألم:

– عشان تقعد لوحدك مش كدا؟

تنهَّد ماجد وأطرق ساكتًا، وتاه في طُرقات عقله، يحاول البحث عن إجابة ترضي سارة وينهي بها هذا الحوار الذي لا يريده، لكنه لم يستطع أن يجد ما يقوله، غير أن ينهض ويمدَّ يدَه لها، نهضت سارة ووقفت قريبة من حبيب عمرها، الذي كانت دموعه تنساب، ولا يستطيع أن يوقفها، كان ينزف قلبه من عينيه، تكلَّم وهو يستجدي الحروف بين شفتيه، يخشى أن يبوح بما يعتمل في قلبه فيجرحها، ارتمت سارة في أحضانه باكية، فأخذ يمرُّ بيده على شعرها ويمسح دموعها:

– سارة.. أنا الوقت اللي باقضيه هنا.. هو اللي مخليني لسة عايش.

حدَّقت سارة إلى عينيه تحاول أن تقرأه، كما اعتادت منذ طفولتهما، احتضنت كفَّيه بين كفَّيها وقربتهما إلى صدرها:

– لولا إني عارفاك يا ميجو كنت قولت في واحدة تانية غيري في حياتك.

أبعد عينيه إلى أشجار الصفصاف، وعضَّ على شفته ندمًا على ضياع بيرسينّا.

احتضنته سارة بحنان:

– تعالى ندخل جوا يا ميجو إنت واحشني، تعالى نرجع بيتنا.

قاطعها:

– قولت لك أنا محتاج أقعد في البيت هنا يا سارة.

– طب ممكن نخرج شوية؟ أنا عازماك ع الغدا، إيه رأيك؟

مُمزَّقًا بين خوفه على سارة وعدم رغبته في مغادرة أشجار الصفصاف، أذعن أخيرًا علَّها تستريح فتتركه يستريح، وربما يجد في تغيير الجو ما يعزيه عن غابات الفقْد التي تزهر في روحه بعيدًا عن روائه ببيرسينّا.

– حاضر يا سارة زي ما تحبي.

ابتسمت سارة وهي تشعر أنها استعادته في تلك اللحظة.

في العربة، تولت سارة القيادة، وخلف المقود كانت تختلس النظر إليه فيتصنَّع ابتسامة ليرضيها، كانت تُحلق في سماء السعادة، تعيد اكتشاف قارة الأمان في روحها، تحتضن يديه، وتودُّ لو أن الزمن توقف وضمَّته إلى آخر العمر، همست له:

– بحبك.

– بحبك يا سارة.

ثم تذكَّر سؤال سارة عن معنى بيرسينّا، فقرر أن يبحث عن معنى اسمها في الإنترنت على هاتفه.

أخذ يُقلب الصفحات عن معنى كلمة بيرسينّا بالإثيوبية، وأخيرًا اهتدى إلى معناها "مسؤولة الرعاية".

هتف صارخًا يا ألله... ثم وضع يده على فمه وانهار باكيًا، هي كانت له القلب الذي احتضن وجعه، تذكَّر أمومة اللحظات الأولى بينهما كيف كانت ترعاه وتُطبِّبه، وكيف كانت تسهر الليالي بجانبه، وكيف تفتحت براعم عِشقه لوجودها بجواره، وكيف توغلت روحها الشفافة في سُقم روحه فتعافت، وكيف هدهدت وحدته فاستأنس بها وصارت له أهلًا وسكنًا.

توقَّفت سارة على جانب الطريق بسرعةٍ لتُهدئ من روع ماجد الذي انخرط في البكاء حتى علا نحيبه، وقد تكوَّر على نفسه في مقعده، يكاد يدفن رأسه بين قدميه، ويهتز جسده من شدة البكاء.

– إيه اللي حصل يا ميجو؟ قريت إيه في الموبايل؟ أنا مراتك حبيبتك قول لي فيه إيه؟

ودفنت وجهها بين كفيها، تبكي شبح ماجد الجالس بجوارها يأكله الحزن، وهي عاجزة عن احتوائه أو حتى تهدئته، سند حياتها الذي اعتادت أن تلجأ إليه، وتستند إليه منذ طفولتها، يتهاوى أمامها، ويتقوَّض على نفسه بجانبها. ناداها وسط دموعه:

– سارة، ممكن نروّح لو سمحتي؟ أرجوكي كفاية ضغط عليا أنا مش مستحمل.

– حاضر.. حاضر.

أدارت سيارتها، وانطلقت عائدة وهي تُدرك بعد ما حدث اليوم أنها لن تستطيع أن تعبر بماجد وحدها إلى شاطئ العودة إلى حياته الطبيعية.

وصلت سارة بماجد إلى فيلا والدته، تُجرجر أذيال الخذلان، والحزن يُغلف قَسمات وجهها على انهيارات زوجها المتكررة. تزامن دخولهما مع وصول جدة الولدين من النادي، وقفوا جميعًا في مدخل الفيلا، وركض الصغيران يحتضنان أبويهما، أمطره لؤي بوابل من الأسئلة:

– انت مش بتروح الشغل ليه يا بابا؟ انت لسة عيان؟ هي رجليك لسة بتوجعك؟ هاتعمل عملية تاني؟

لفت سارة طفلها بذراعيها وحملته إلى الداخل:

– يللا يا بطل ع الحمام عشان بعد كدا نتغدى.

وسلمته للخادمة سعاد لتساعدها، أما ملك فقد احتضنت وجه أبيها بيديها الصغيرتين:

– مالك يا بابي، إنت كنت بتعيط؟

سارعت أمه بسحب ملك من حضن أبيها الذي كان يجلس على الأرض ليعانقها.

– سيبي بابا يا حبيبتي عشان يستريح.

قلبت الأم عينيها بين ماجد وسارة في حيرة، لا تدري هل تسأل أم أن الإجابة مرسومة بوضوح على وجه سارة وعيني ماجد المنتفختين من البكاء؟ لكنها قالت ببهجة مصطنعة:

– أنتوا اتغديتوا برا؟ وللا هاتتغدوا معانا؟

هزَّت سارة رأسها بعصبية:

– لا يا ماما، ما اتغديناش.

هبَّ ماجد واقفًا، ونظر إلى سارة وأمِّه بألم، وهو يحاول أن يتماسك حتى لا يسقط في دوامة البكاء مجددًا، كان يقاوم رغبة دفينة في الصراخ ليُخرج هذا الألم الجاثم على صدره، ويُزيح صخور يأسه من أن يفهمه أحد، لكنه ابتلع ريقه الجاف وقال بهدوء:

– مش جعان، ومحتاج أقعد لوحدي شوية، ممكن يا سارة؟ ممكن تسيبوني لوحدي؟ أنا مش باطلب حاجة صعبة.

كان يحاول التماسُك، يؤجل انهياره حتى يقف أمام أشجار الصفصاف.

هزَّت سارة كتفها بغضب، وسارت مسرعة في اتجاه المنزل، تؤجل انهيارها حتى تختلي بنفسها في غرفتها بعد أن أضحى سريرها ضريحًا لعلاقتها بماجد.

– اللي يريحك يا ماجد.

بينما زمَّت والدته شفتيها أسفًا على ولدها الذي أصبح شبحًا لما كان عليه، تراه يذبل كل يوم، يذوي ويتقوقع داخل ذاته، يبحر بعيدًا عن شواطئ أسرته وحياته السابقة، وهي لا تملك أن تُلقي له حبل الإنقاذ الذي يُعيد ولدها إليها وإلى أسرته، لا تملك إلا دعاءها له علَّه يستعيد بهاءه، ويعود كما كان قبل اختفائه، كأنه ذهب بروحٍ وعاد بأخرى.

قرار

تطوفينَ شوقًا في الذاكرة
تُنيرينَ ليلًا كئيبَ الظلالِ
تجوبينَ حُلمًا بعيدَ المنالِ
وبعضُ الغيابِ شديدُ الحضورِ
أيتها الغائبةْ الحاضرة

خلع ماجد حذاءه ليمشي على أرض الحديقة، يتوحد مع الأرض، يستشعر ملمسها، هذه الأرض تُروى بذات النيل الذي يلامس جسد بيرسينّا، هذه الأشجار تغتسل مثلها بالماء نفسه، هل يستقي النيل عذوبته من قطرات الروعة التي تتساقط عنها! هل يأخذ النيل عنها سماره!

اقترب من أشجار الصفصاف، وخرّ على ركبتيه، ثم أسند ظهره على إحداها:

– يا ملاكي الأسمر، كيف اخترقت قِلاع نفسي؟ واستسلمت لك حصون روحي، وأصبحتُ أسير هواك!، يا راعيتي، يا أنيستي وحاميتي، كيف سمحتُ لنفسي أن أغادر مدارك، ككوكب منفي من مجرته؟ كيف رحلتُ عنك؟ وكيف تركتُك ترحلين! وتركت مسافات الشوق تكبر بيننا في طريق بلا عودة؟ وكيف رحلتُ بدونك؟! ليتني ذبحت أيامي تحت قدميك، ليتني قدمتُ عمري قربانًا لبقائك معي.

رفع يديه في الهواء كأنه يستعيد ذاكرة يده على ملامح وجهها، يشعر بها بين ذراعيه، مَدَّ يده إلى جذع الشجرة يتحسَّسها في ألمٍ، وكأن قلبه سينخلع من صدره، وعلا نحيب ماجد.

– خُنتك، زي ما خنت صابر، سيبتك زي ما سيبت صابر، أنا ما أستحقش أعيش، أنا مش معاكم عشان ما أستحقش أكون معاكم، أنا تعبت، أنا تعبت.

جاءت والدة ماجد مُسرعةً، وجلست بجواره على الأرض وقد هالها صراخُه وبكاؤه في الحديقة.

– مالك يا حبيبي؟ إيه بس يا بني مالك؟ ريحني ربنا يريح قلبك.

– أنا إنسان سيئ.. خاين..أنا خاين يا أمي،، أنا اللي كان لازم يموت مش صابر.

ضمَّته أمُّه إلى صدرها، تُهدهده كطفلٍ صغير:

– بس يا حبيبي بعد الشر عنك، ليه كدا يا حبيبي، دا انت نور عينيا اللي باشوف بيها، كدا يا ماجد؟ كنت عاوز تروح وتسيبني يا ماجد، حرام

عليك، فكر في ولادك يا حبيبي اللي ربنا نجاك عشانهم، فكر في مراتك اللي مالهاش غيرك يا بني بعد ربنا.

تكوّر ماجد في حضن أمه وانتحب باكيًا:

– ضُميني يا أمي، ضُميني يمكن أحس بيها، ضميني يا أمي يمكن أرجع لحضنها، آه يا أمي اتخليت عنها زي ما سيبت صابر، سيبتها زي صابر يا أمي، رجعت ليه بعد كل اللي عملته عشاني؟ خنتها يا أمي، خنت قلبها اللي حضنني ووقف جنبي وسيبت روحها اللي احتوتني وطبطبت على قلبي وجروحي... سيبتها وسيبت صابر.

ظلَّت أمُّه تُهدهده وتهدئ من روعه، ودموعها تغسل وجهه، ترقيه بقلبها وتمسح على رأسه وهو يتمتم بالأهازيج التي كانت بيرسينّا ترقيه وتهدهده بها في ساعات ألمه فيهدأ ويستكين، وسارة تراقبهما من وراء زجاج النافذة، وقلبها يتساقط وجعًا على حبيب العمر، ها هي تراه يذوي بين يدي وجع لا تدرك كُنهه، ها هي أيامهما معًا تذبل، تتساقط أوراق صبرها في خريفً الانتظار، يا لوجع دمعه الذي يحرقها، ونظرات التيه التي تغرقها في دوامات الحيرة! تمدُّ إليه يدًا لا يراها، تحتضن كفَّيه وبينهما أعواد الصندل التي لا يتركها، بحدس الأنثى كان عقلها يشعر أن هناك مَن تقف بينهما، ولكن قلبها كان يرفض التصديق، ماجد! مستحيل أن يدقَّ قلبه لغيري، مستحيل أن يميل عن هواي. كان عقلها يدور بها في دوائر بعيدًا عمَّا يقترب من اليقين، ليلقيها على شواطئ الرفض، ترفض أن تقتنع بوجود أخرى تحتل مساحات

واسعة من قلب زوجها، وتقف بينهما، تتقلب في عقله الواهن فتُقلق راحته، وتُثير وجعه بعيدًا عنها.

– لو أعرف بس يا ماجد إيه اللي يريحك؟، لو تقول لي إيه اللي حصل لك في سينا؟

تسرب ضباب اليأس إلى رأسها المُتعب، فأسلمت جسدها المُتعَب، وعقلها المُتخَم بالأسئلة إلى سريرهما الذي استحال أشواكًا منذ عاد.

في الصباح، بعد أن خرج ماجد إلى الحديقة ليشرب قهوته كعادته بعد الإفطار، انفردت سارة بحماتها، كانت تبدو رغم قلقها ثابتة ومتيقنة مما تقول، كانت تحتاج أطنانًا من الهدوء لتخرج كلماتها متوازنة ولتنتزع موافقة حماتها على ما تفكر فيه، وإن كانت تنوي المُضي في خُطتها مهما يكلفها الأمر.

– بصي يا ماما، أنا مش هاسيب ماجد يضيع مني، أنا هاخده لدكتور نفساني.

فزعت حماتها من مجرد الفكرة.

– لا يا بنتي مش للدرجادي، إمبارح كان بيتكلم عن صابر، مش متخيل إن صديق عمره مات وهو اللي رجع، صدمة زي ما قولتلك.

هزَّت سارة رأسها بثبات، تنفض عنها ما تحاول حماتها أن تزرعه فيها، ولتُعيد إلى نفسها الثقة بقرارها.

– لا يا ماما، دا اكتئاب، ماجد ما عيطش كدا حتى في وفاة والده، وعينيه الزايغين وعدم رغبته في إنه يعمل أي حاجة في حياته، أنا مش هاسيبه يا ماما لحد ما يروح مني.

أطرقت أم ماجد في ألمٍ وتنهدت رافعة رأسها لزوجة ابنها:

– تفتكري يرضى؟ ما أظنش يا سارة، يا حبيبي يا بني، دا كان بيبكي وينتفض في حضني زي العيل الصغير.

وانهارت الأم في بكاء صامت، لم تستطع أن تخبر سارة بكلامه عن خيانته لأخرى غير صابر، لأنها نفسها لم تفهم عمَّ ولا عمَّن يتحدث ابنها. احتضنتها سارة:

– ما تقلقيش يا ماما، أنا هاتصرف.

مكاشفة

في صباح يوم جديد، بعد أيام من محادثتها لحماتها، كانت سارة تعدُّ العُدة لخطوة حاسمة في علاج ماجد، والأمل الأخير لها لجَمْع القِطع الممزقة من نفسيته لسابق عهدها. وصل الدكتور محمود سالم استشاري الأمراض النفسية إلى الفيلا وقت الظهيرة، نزلت سارة لاستقباله، بعد أن أوصلت الولدين للحضانة، وهيَّأت نفسها، وقد استعادت هدوء ملامحها، قررت أنها ستقاتل لاستعادة قلب ماجد وعقله، ستقاتل لتُعيد إليه حياته وتستعيده في حياتها، ولو كلَّفها ذلك استقرار حياتها معًا، ستستعيده من أجل ملك ولؤي، ومن أجل سنوات الحب التي رعتها فأزهرت في قلبها شغفًا ووهجًا وهي لا تنوي أن تفرط فيه لبقية عمرها.

– أهلًا يا دكتور، اتفضل يا فندم.

– أهلًا يا هانم، إزي ماجد انهاردة؟

– ماجد في الجنينة يا دكتور، زي ما وضحت لحضرتك من يومين في العيادة.

– تمام أستأذن حضرتك تعرفينا ببعض وبعدين هابقى محتاج أبقى معاه لوحدنا، بعد كدا هاقعد تاني مع حضرتك والهانم والدته بإذن الله.

ارتبكت سارة لوهلة قبل أن تفاجئ الطبيب:

– أكيد يا دكتور أنا بس، الحقيقة لازم حضرتك تعرف إني.. أنا آسفة ما قدرتش أقول له إن حضرتك جاي انهاردة، كل مرة كنت بلمَّح بالموضوع دا كان بيرفض بشدة، أنا آسفة أن باحط حضرتك في ظرف زي دا، بس أنا بجد عاجزة عن التفكير، عارفة إنه محتاج مساعدة وحضرتك أكدت لي أن دي أعراض اكتئاب شديد.

زمَّ الطبيب شفتيه، وأطرق قليلًا ثم أردف قائلًا:

– طبعًا حضرتك عارفة ومقدرة إنه لازم يبقى عنده رغبة في العلاج، وإن..

قاطعته سارة

– نحاول، أرجوك نحاول.

– حاضر يا فندم، خير إن شاء الله، اتفضلي.

سارت سارة بجوار الطبيب ودقات قلبها تتردد في أذنيها، تدعو الله من قلبها أن يوفقها في هذه الخطوة، وتدرك أن هذا المنعطف الخطير قد يقضي على زواجهما، لم تخالف أمره يومًا، دومًا كانت تُحلِّق لكن تحت جناحه، خطواتها مرسومة بدقة له حتى في غيابه، واليوم ها هي تخطو خارج سربه، ولكنها فقط تحاول أن تُعيده إلى سمائها، لعل الطبيب ينجح فيما فشلت فيه هي في

الآونة الأخيرة، كانت تحاول أن تشعل في صدره وهجًا يبقيه على قيد الحياة، على قيد الشغف الذي فَقَدَه وانطفأ بعده سراج روحه، فما هو الآن إلا بقايا عائد، نصفه هنا، ونصفه الآخر لا تدري أين يُحلق، وأي سماء تحتويه.

توقَّف الطبيب على بُعد خطوات من ماجد الذي كان يضع كرسيه بين الأشجار، كان يقترب بكرسيه يومًا بعد يوم حتى أصبح يختفي بين الأشجار.

خطت سارة بخطوات هادئة في اتجاه ماجد، وضعت يدها على كتفه فرفع رأسه إليها:

– أيوه يا سارة.

– أيوه يا ميجو يا حبيبي، فيه حد عاوز يشوفك.

وقف واستدار مستفهمًا، فمدَّ الطبيب يده مُسلِّمًا:

– أهلًا يا فندم إزي حضرتك؟

– الحمد لله.

– اسمح لي أقدم لك نفسي، أنا دكتور محمود سالم، حضرتك عارف إنك مريت بظروف استثنائية وكلنا نحب نتطمن عليك.

استدار ماجد غاضبًا وهو يضيق عينيه ناظرًا بحدة إلى الطبيب:

– ممكن أعرف من حضرتك.. "كلنا " دول اللي همه مين؟

– ياه.. انت بطل يا فندم، وأكيد مثلًا القيادات في الجيش، وهنا في البيت...

قاطعه ماجد وهو يُغرق سارة بنظرات الاستفهام الحادة، ويعود ليرسل رسالةً قاطعةً بالرفض للطبيب:

– شكرًا يا فندم أنا كويس جدًّا، رجلي أحسن كتير بفضل الله وهابتدي علاج طبيعي.

التفتَ الطبيب إلى سارة ليقطع محاولة ماجد لرفضه:

– هوا انت هاتسيبني واقف كدا يا فندم؟ إيه يا مدام سارة؟ مفيش عندكم شاي؟

كانت سارة قد أسرعت لتحضر كرسيًّا للطبيب من طرف الحديقة، وضعته بجوار كرسي ماجد، وهي تُردد:

– يا خبر طبعًا يا دكتور حالًا.

ثم سارت مسرعة في اتجاه المنزل، تهرب من شلالات الغضب التي تعرف أنها ستغرقها لو استمرت بالوقوف لثانية أطول.

أردف الطبيب بعد أن أحسَّ أن ماجدًا قد استعاد بعض هدوئه، وإن كان يعمد إلى تجاهُله تمامًا:

– الجو رائع هنا في الجنينة، المكان أكتر من رائع الحقيقة، لما قعدت حسيت بهدوء نفسي.

وكأنه لمس بقوسه وترًا في كمان التواصل مع ماجد الذي ابتسم وأومأ برأسه.

– الشجر دا زي البني آدمين، بيشعر وبيتأثر.

– فعلًا.

– الشجر دا مش عطري بس أنا شامم ريحة جميلة بشكل! يا ترى مصدرها إيه؟

أخرج ماجد أعواد الصندل من جيبه وأخذ يتأملها، فأكمل الدكتور محمود مستفهمًا:

– دا بخور مش كدا؟

– بخور الصندل.

– دا مكانك المفضل يا ماجد؟

– أيوه.

– مريح فعلًا.

– ونس.

– بتتونس بالشجر؟

– جدًّا.

مال الطبيب بجذعه في اتجاه ماجد وأكمل حديثه وهو يتأمل في الأشجار أمامه:

– عارف يا ماجد، ساعات الواحد بيبقى جواه حاجات مش قادر يعبر عنها، بيبقى أسهل أنه يدفنها بعيد عن اللي حواليه، مع إنه هايستريح كتير لما يفضفض.

– مش لازم الواحد يفضفض مع بني آدمين، ساعات الشجر بيفهم أكتر.

– الشجر مش هايرد عليك، مش بيقولوا برضه الكلام أخد وعطا؟

التفت ماجد إلى الطبيب واعتدل في جلسته مُحتدًّا:

– دا كلام مش صحيح، في ناس بتفهمك، بتحتويك، بتعالجك، بتدافع عنك من غير ما تفهم كلامك، في ناس بتكلمها وبتفهمك بعنيها اللي بتشوف جوا روحك.

– الله! يا بخته اللي عنده حد كدا يا ماجد.

ابتلع ماجد ريقه كأن حريقًا قد شبَّ في صدره، فوضع يده على فمه لا يدري كيف يسكت شهقة ترتفع من صدره إلى حلقه، ولكن أنهار الدموع كانت الأسبق إلى عينيه، وكعادته مؤخرًا، خانته رباطة جأشه، وظَلَّ يبكي ويشهق ألمًا والطبيب يراقب ردة فعله.

اكتفى الطبيب بالتربيت على ظهره، واستأذنه بعدما هدأ، طالبًا منه أن يأذن له بزيارته بعد أسبوع.

– بص يا ماجد يا بني، أنا مقدّر حبك للشجر، بس اسمح لي أكون واحد من الشجرات بتاعتك، هاسمعك وهاتحكيلي وتأكد إن كلامك مفيش مخلوق هايعرف بيه، إلا لو الشجر بقى هوا اللي حكى لحد.

هاشوفك بعد إسبوع، بس لو تسمح أنا هاكتب لك على أدوية بسيطة هاتساعدك شوية عشان ما حبش الشجر يشوفك كدا. أشوفك على خير يا بطل.

عاد الطبيب من الحديقة فدعته والدة ماجد للجلوس لتناول الشاي والحديث عن حالة ماجد، وانضمَّت إليهما سارة، استقى منهما معلومات أخرى ليكمل الصورة التي وصفتها له سارة في العيادة، وكذلك التي كوّنها من حديثه القصير مع ماجد. كان قلق أمِّه يتعاظم كل يوم وهي ترى ابنها ينهار أمامها في نوبات بكاء زادت عن حَدِّها، وكأن هذا البركان الذي يحمله في صدره لا يهدأ، ويُلقي حُممه فيحرقه ويحرق مَن حوله.

نهض الطبيب مودِّعًا:

– بس المهم، طمني يا دكتور، يعني إبني هايرجع كويس زي الأول؟ وللا الصدمة دي هاتفضل مأثرة عليه كدا، إحنا بقالنا أكتر من خمس شهور والحالة بتسوء.

– خير يا هانم، كل خير بإذن الله، أنا ما حبتش أطول عليه انهاردة، محتاج يمشي ع العلاج دا ضروري.

وأخرج دفتره، وكتب بعض الأدوية، تلقفت سارة الورقة وهي تأمل أن يكون بها الحل لحالة ماجد المتردية، لم تفكر في مواجهتها المحتومة لماجد ليتناول أدويته، كانت تتعامل مع الأحداث الواحدة تلو الأخرى، وداخلها

رغبة في أن تغمض عينيها لتستيقظ وقد استفاقت من هذا الكابوس الذي أضحى عنوان أيامها.

في طريقه نحو باب الفيلا أكَّد الطبيب ضرورةَ الراحة النفسية التامة لماجد بعيدًا عن أي توتر والالتزام بالعلاج:

– هاشوفه تاني بعد أسبوع بإذن الله.

– شكرًا يا فندم، اتفضل.

في المساء، كان ماجد ما زال غاضبًا من سارة، رغم ارتياحه للطبيب، وإحساسه بحاجته للتنفيس عما بداخله، هل من أملٍ في أن يستعيد ملامح نفسه قبل أن يهوي صريع وجعه، في هوة أصبحت كثقبٍ أسود تبتلعه يومًا بعد يوم؟ ولكنه لم يتقبل قط أن تضعه سارة أمام الأمرِ الواقع، دلف إلى حجرتها حيث وجد سارة تقرأ في مجلة وهي مسترخية في سريرهما، وقف قبالتها قائلًا وهو يتحاشى النظر في عينيها:

– سارة، أنا عارف إني باتعصب عليكي كتير اليومين دول، وشايف إن الأفضل تروّحي البيت مع الولاد.

ولكن سارة لم تعِ ما قصده ماجد، فردت بحماسةٍ:

– بجد يا ماجد، هانرجع بيتنا.

– لا يا سارة أنا هافضل هنا، وانتي والولاد... أو لو عاوزة تروحي عند مامتك وباباكي..

انتفضت سارة واقفة، وهُرعت إلى جواره، وقبل أن يكمل كلامه بغضب، وضعت سارة يدها على فم ماجد، كأنها تَئِد كلماته قبل أن تخرج للنور، وتُصيب شظاياها حياتهما للأبد.

– لا أوعى تقول كدا يا ماجد، لا، أنا مش هاسيبك، ولا انت هاتبعدني عنك.

– سارة انا كنت متخيل إنك عارفاني أحسن من كدا.

ردت سارة بغضب، وقد فقدت سيطرتها على كلماتها التي خرجت مرتعشة مكسورة كشظايا البلور.

– انت بقيت عارف نفسك يا ماجد؟ إنت شايف إنه ينفع أشوفك بتموّت نفسك وأسكت؟

هَبَّ ماجد واقفًا ودفع بيده الكرسي الذي كان جالسًا عليه فأطاح به على الأرض، وسار في اتجاه باب الغرفة، فسارعت سارة تقف بينه وبين الباب:

– ممكن أعرف حضرتك سايبني ورايح فين؟

– أنا مش عاوز أتكلم معاكي يا سارة.

– أومال عاوز تكلم مين يا ماجد؟

نظرت سارة إلى عيني ماجد تحاول أن تقرأ حيرته وقلقه، الذي تحوَّل إلى بركان غضب لم تعهده منه من قبل.

– انتي عاوزة مني إيه يا سارة؟

– عاوزاك انت يا ماجد، عاوزة جوزي حبيبي، حب عمري.

ولكنه عاجَلَها بكلمات طعنتها في ثقتها بما بقي بينهما:

– وأنا مش قادر.

– مش قادر إيه؟

– مش قادر أكون معاكي يا سارة.

– ليه يا ماجد؟ انت.. ما بقيتش بتحبني؟

– مش عاوز اتكلم معاكي دلوقتي، سيبيني لوحدي من فضلك.

تنحّت سارة عن الباب وهي بصعوبةٍ تستطيع الوقوف على قدميها.. ثم سارت كالمُنوَّمة، لتجلس على طرف السرير، بينما ماجد يهمُّ بمغادرة الغرفة، ثم همست بحسرة:

– انت بتحب حد غيري يا ماجد.. هي اسمها بيرسينّا؟ مش كدا؟ هي دي اللي بتنادي عليها وانت نايم؟

كانت سارة تواجه نفسها قبل أن تواجه ماجدًا، تعترف بوجود أخرى تشعر بها وتستقرئ وجودها.

تسمّر ماجد في مكانه، ولكنه لم يستطع أن يستدير ليواجه سارة، تابعت سارة كلماتها بحسرةٍ وألم يجثمان على صدرها منذ عودة ماجد وتردِّي حالته النفسية، وهي تشعر أن أعواد الصندل تقف بينها وبينه.

– إنت فاكرني مش حاسة، فاكرني مش هاعرف؟ ماجد أنا حافظة قلبك صم، وممكن أسمع روحك غيبًا، دلوقتي المفروض أعمل إيه؟ أقولك روح لها؟

كان صوت سارة المتهدج يعلو بغضب ويتكسر على صخرة انتظارها ردًّا من ماجد الذي أسند كفَّه على الباب ليتمكن من الوقوف وسط موجات غضب سارة التي كانت تقذف به إلى شواطئ الوجع أكثر فأكثر، ولكنه كان يغرق في حيرته وغضبه وفقدانه لكل شغفٍ دون بيرسينّا.

جاءت أمُّ ماجد مهرولةً، وتجاوزت ماجد الذاهل عند الباب ودخلت مسرعةً إلى الغرفة لتجلس بجوار سارة التي كانت تبدو في حالة مزرية، كانت شاحبة كلوح ثلجي، متجمدة كتمثال لامرأة بائسة، تبدو كأنها لا تتنفس، تحدق إلى ذهول كأنها تتهاوى نحو الموت.

– إيه يا سارة؟ فيه إيه يا بنتي؟

– خليه هوا يقول فيه إيه يا ماما.

وانهارت باكية، وماجد يبتلع حريقًا في جوفه، يشعل جسده وتتصاعد ضربات قلبه وتتسارع أنفاسه في سباق مع إحساسه بدوار يخلع قدميه من الأرض.

أمسكت أمُّه بيد سارة بقوة تهزُّها علَّها تستفيق من حالة الذهول التي سقطت فيها:

– دا اللي اتفقنا عليه مع الدكتور يا سارة؟ مش قولنا بلاش نعرضه لضغط يا بنتي.

ردَّت سارة بحرقة، وهمست لأمِّه وهي تبكي بألم:

– أنا اللي بانهار يا ماما، حياتي اللي بتنهار.

كان ماجد في طريقه للأرض، يتهاوى ممزقا بين حيوات تتصارع داخله، حياته السابقة مع أسرته وفي عمله، رحلته مع صابر، أيامه مع بيرسينّا بحلوها ومُرها، وبقاياه منذ عاد، صراعات تعتمل داخله وتُلقيه في دوامات التيه، التي أصبحت عنوان أيامه، وجعلته يمضي نحو هاويةٍ مُحقَّقة، وانهيار محتوم، يحمله بسرعة نحو قيعان نفسية لا يرى منها فكاكًا، يسير على حافة حياته، ينزلق نحو نهاية لا يدري كُنهها، ولكنه يتمناها لتريح عقله المتعب وروحه المُعذَّبة. ارتطم ماجد بالأرض، بعد أن استسلم جسده للصراعات النفسية التي التهمت أيامه وانسحبت الآن أمام إغماءة تريح عقله رغم الدماء الساخنة التي تنهمر الآن من جرح رأسه الذي شُجَّ من ارتطامه بحافة الباب.

ركضت سارة لتحتضنه صارخة:

– مااجد، ماجد!

احتضنت سارة ماجدًا وقد فَقَدَ وعيه، وأخذت تنتحب:

– أنا آسفة يا ماجد، سامحني يا حبيبي، سامحني.

بينما جلست أمُّه على الأرض تمسح وجهه، وتُدلك صدره ويديه وهي تتمتم بآيات القرآن، وتدعو ربها بشفاء ابنها، ثم لا تلبث أن تقطع رقيتها لتنادي اسمه بصوتٍ مغسولٍ بالدموع.

على الطريق

خَبِّرِينِي
كَيفَ اسْتَطَالَ الطَّرِيقْ
وأَزْهَرَ فِي
جانِبَيْهِ الحَرِيق
وكَيفَ احْتَمَلتِ
جَمْرَ الرَّحِيلِ
وسَأَمَ السَّبِيلِ
وأَلَمَ الصَّدِيق
وكَيفَ اصْطَبَرْتِ
وَدَاعَ الأماني
ورَجْعَ الأغاني
بِذِكرَى وضِيقْ

جلست سارة مع صديقتها منال في حديقة الفيلا وقد اكتست ملامحها بالألم، وخيّم عليها الحزن والمعاناة، احتضنت منال كفَّها في قلق:

– طمنيني يا سارة حبيبتي، أنا أول ما كلمتك صوتك خضني جدًّا، ما قدرتش أستنى كان لازم آجي.

وضعت سارة فنجان قهوتها، وابتسمت ابتسامة هزيلة، تُخبئ وراءها ألمًا لا يُطاق، احتملته بصبر لا تملك غيره.

– شكرًا يا منال تسلميلي يا رب حبيبتي ، الحمد لله أنا بخير.

لكن منال كانت تدرك أن مفتاح صحة سارة النفسية وسعادتها هو ماجد، لم تكن بحاجة لدليل يخبرها أن سارة تتلكأ في وديان الألم، وأن عينيها الذابلتين قد فارقتهما ابتسامتهما المحببة منذ عودته رغم تكتمها في الحديث مؤخرًا عنه، ولكنها أرادت أن تنكأ الجرح ليلتئم:

– ماجد عامل إيه يا سوسو؟ صارحيني.. احكي ولما هاتتكلمي هاترتاحي.

أطرقت سارة وهمست في ألم:

– ماجد عنده انهيار عصبي يا منال. وأنا على قد ما انا حزينة على ماجد إلا إني مصدومة في الدنيا كلها يا موني، متخيلة! حماتي الست المثقفة، مارضيتش ماجد يتعالج في المستشفى رغم إن ماجد حالته مش بسيطة! قعدت تعيط وتترجى الدكتور إنه يجيب ممرضات في البيت بس ما يروحش مستشفى أمراض نفسية! مش متخيلة قد إيه في ناس لسة مش قادرة تستوعب

التعب النفسي، ولا عندها استعداد تتعامل بتقبُّل مع المرض النفسي، حماتي لحد دلوقتي مقتنعة إن الموضوع صدمة موت واحد صاحبه وخلاص مش اكتئاب شديد محتاج علاج.

– معلش يا سارة دي ثقافة مجتمعية، محتاجين وقت طويل على بال ما يبقى فيه تفهم صحيح للموضوع دا، وبالتالي يبقى فيه تقبل للاضطرابات النفسية وعلاجها بشكل سليم.

– عارفة يا موني، اللي مضايقني، إني حاسة إني قصرت مع ماجد لما سمعت كلامهم، كلام حماتي وماما وبابا، كان لازم ألجأ للدكتور زي ما نصحتيني قبل ما نوصل للوضع دا وحالته تسوء لدرجة الانهيار العصبي.

– ما تعذبيش نفسك يا سوسو، ماجد نفسه مكانش هايرضى يروح أصلًا، انتي كمان مش عاجباني يا سو.. انت كمان محتاجة تاخدي بالك من نفسيتك.

تنهدت سارة، ونظرت إلى يديها، كأن العمر يتسرب من بينهما:

– مفيش في إيديا حاجة يا منال.

– اتماسكي يا سارة، وخلّي بالك من نفسك، عشانك وعشان خاطر الولاد وعشان ماجد كمان.

– مش قادرة يا منال، امبارح حماتي بتقول للؤي ما تعيطش انت راجل، ما قدرتش أمسك نفسي، أخدته في حضني وقولتله عيط يا حبيبي، عشان انت إنسان، الراجل كمان بيعيط، وبيحكي وبيقول إيه اللي مضايقه، عيط

يا حبيبي وانا هاعيط معاك، وقعدت أعيط ولؤي في حضني لحد لما تعبت ونمت زي العيال الصغيرين.

تهدج صوت منال وهي تقاوم رغبتها في احتضان سارة والبكاء:

– عمري ما شوفتك مطفية كدا يا حبيبتي.

– الحمد لله على كل حال يا منال، غمة وهاتنزاح بإذن الله، يا رب بس ما تطولش عشان انا ابتديت أتعب قوي، دعواتك.

مرت الأيام التالية لانهيار ماجد هادئة، كان الطبيب يبقيه نائمًا معظم الوقت، وحالة جسده المتعب كانت تبقيه في السرير معظم الأوقات، مَرَّ الأسبوع الأول دون أن يبدأ الكلام مع من حوله، ثم تحسنت حالته في الأسابيع التالية، وبعد أن زاره الطبيب مرة أخرى سمح بوقف المحاليل واستكمال العلاج مع قليل من الحركة بحذر، والأهم الذي أكَّده الطبيب كان البعد تمامًا عن أي توتر محتمل.

أصبح نوم ماجد أفضل بكثير بعد التزامه بالعلاج، وقلت نوبات بكائه وانهياراته، كان يبدو أكثر هدوءًا، وأكثر قدرة على السيطرة على مشاعره التي تبعثرت وشردت منذ عاد من مهمته، ومن رحلته التي لا تفارقه بكل تفاصيلها. وأصبح موعده للحديث مع الطبيب كل أسبوع كرحلة هادئة في أنهار مشاعره للوصول إلى ينابيع الألم.

– احكيلي يا ماجد، إنت كنت مع المرحوم صابر لما استشهد؟

أطرق ماجد وابتلع ريقه وأومأ بالإيجاب:

– طيب ممكن تحكيلي ظروف استشهاده؟

هَزَّ ماجد رأسه بعصبية:

– لا مش هاينفع حضرتك دي أسرار عسكرية، بس لازم تعرف إن صابر كان بطل، وإنه ما اترددش إنه يضحي بنفسه، مش ممكن أنسى نظرة عنيه وملامحه قبل ما..هاتفضل محفورة جوايا وندمان إني ماعملتش حاجة.

وتدحرجت دمعتان من جانبي عيني ماجد، واختنقت كلماته وهو يكمل:

– جنازة عسكرية بنعش فاضي، وبعدين؟ صابر كان عاوز يعيش، كان بيحب الحياة، كان عاوز يرجع، ويتجوز، و.. يعيش.

أمسك دكتور محمود بيد ماجد وضغط عليها برفق:

– انت هنا دلوقتي يا ماجد، رجعت من مهمتك.

ثم نظر إلى ماجد نظرة جادة:

– تفتكر لو صابر مكانش راح المهمة دي كان هايبقى عايش دلوقت؟

نظر ماجد بحيرة إلى دكتور محمود:

– مش عارف، يمكن!

– بس دا مكتوب يا ماجد، كلنا مكتوب لنا معاد معين، مهما اختلفت الظروف، محدش بيأجل معاده ولا بيقدمه.

أطرق ماجد ثم قطب جبينه وقال:

– يمكن، لو أنا اللي..

استطرد الطبيب:

– محدش بيموت مكان حد يا ماجد، صابر مامتش بدالك.

– أنا اللي كان لازم أعمل اللي هوا عمله، أو يبقى نصيبي أنا.

– لو كان دا مكتوب كنت عملته.

– إحنا مخيرين مش مسيرين.

– أكيد، بس أقدار الله فوق كل قرار بتاخده، أنت تريد والله يفعل ما يريد، ولن يقع في ملك الله إلا ما يريد هو سبحانه وتعالى.. ممكن دعوة والدتك، أو مناجاة زوجتك لربنا، أو يمكن حتى عشان خاطر لؤي أو ملوكة الصغيرة، الدعاء ممكن يرد القضاء يا ماجد.

ابتسم ماجد ابتسامة باهتة ورفع عينيه إلى الطبيب:

– إمتى ممكن أنزل الجنينة؟

صبح جديد

أنا بينَ شقّيّ رحى.. أنتظِر
فوصلُكِ يُشعِلُ ذراتِ روحي
يزلزلُ كوني.. يَدُكُّ صروحي
يَذُرُّ الرَّمادَ على مُستَعِرْ

أزاحت سارة ستائر الغرفة، وفتحت النافذة المطلة على الحديقة، تنسمت رائحة الصبح الجديد، ثم جلست بجوار ماجد، تتأمل ملامحه الهادئة، وتركت أشعة الشمس تداعب عينيه وقسمات وجهه، وقد انهمرت شلالات النور في الحجرة فتقلص الظل، وانتشرت أجنحة الدفء، فتح ماجد عينيه فتهلل وجه سارة وهمست في سعادة:

- ميجو حبيبي، صباح الخير.

بصوت نعسان، أجاب ماجد وهو يفتح عينيه ليغتسل بالضوء الذي يُطارد بقايا النوم داخل عقله:

– صباح النور يا سو.

مسحت سارة على رأسه وهي تبتسم بهدوء:

– مش عاوز تفطر في الجنينة انهاردة؟ أنا قولت لسعاد تجيبلك القهوة في الجنينة.

اعتدل ماجد ونظر بحنين إلى النافذة:

– طب هاتيلي العكاز اللي كنت باستخدمه بعد العملية.

احتضنت سارة كفَّ ماجد بين كفيها، وابتسمت عيناها:

– أنا عكازك يا حبيبي.

ساعدته سارة على النهوض ببطء من السرير بعد أن أمضى الأسابيع الأخيرة في سريره.

خطا ماجد ببطء ونظر من النافذة في طريقه إلى باب الغرفة، يبث شوقه إلى الأشجار، يحثُّ الخطى للقاء الحبيبة.

نزل ماجد مع سارة إلى الحديقة، وقد استضاء وجهه بابتسامة رائقة.

أجلسته سارة على كرسيه المُفضَّل وسحبت كرسيًّا لتجلس بجواره:

– عارف يا ماجد... واحنا صغيرين لما كنا بنقعد هنا في الجنينة، أنا مكنتش بافكر إن احنا ممكن نتجوز.

ابتسم ماجد ببطء وهو يفكر في كلمات سارة:

– دا اعتراف خطير يا سو، يعني مكنتيش بتحبيني؟

– كنا أصحاب، أصحاب قوي كمان، أنا فاكرة لما ظهرت نتيجة الثانوية العامة بتاعتك، كنت باحكي عنك لصاحباتي بفخر، وكانوا بيقولولي مافرحتيش بنتيجتك في الإعدادية كدا، ولما واحدة فيهم قالت لي انتي بتحبيه اتخانقت معاها ساعتها وبطلت أكلمها.

ابتسم ماجد في حنان، وهو ينظر إلى سارة ويحتضن كفَّها بين كفيه:

– أول مرة تقوليلي الكلام دا! أنا باحبك من زمان يا سو.

نظرت سارة إلى عيني ماجد الحانيتين، ثم أخفضت نظرها وهي تقول بخجل:

– يمكن أنا كنت بحبك بشكل مختلف، كنت شايفاك ساعتها حاجة مهمة في حياتي، يمكن صديق أكتر، أو أخ.

ثم غمزته سارة في كتفه وأكملت ضاحكة:

– وأنت كمان مكنتش بتقول حاجة.

ضحك ماجد وهو يمسح وجهه بكفِّه:

فأكملت سارة:

– عارف إمتى أول مرة أحس إنك بتحبني؟ لما كنا في المصيف في أجازة أولى ثانوي بتاعتك، لما ابتديت تغير وتتقمص.

اعتدل ماجد في جلسته وهو يرسم ملامح الجدية على وجهه الضاحك:

– يعني على فكرة، كل اللي حوالينا كانوا عارفين إني باموت فيكي أصلًا وحضرتك مش حاسة، أنا كمان عارف إمتى حسيت إنك بجد بتحبيني، فاكرة أول مرة أنزل أجازة م الكلية، وجيت عندكم بلبس الكلية، عشان أترسم قدامك، وحضرتك قعدتي تتنططي وتقوليلي الله! شكلك كبرت كدا ليه؟ كنت عاوز آخدك بالحضن عشان واحشاني، وعشان كانت دي أطول مدة ما نتقابلش فيها.

– وانا كمان ساعتها شوفت في عنيك نظرة متغيرة بجد.

همس ماجد وهو يقرب وجهه من سارة:

– عشان كدا ما رضيتيش تيجي معايا لما قولتلك نتمشى لحد بيتنا؟

ابتسمت سارة بخجل:

– ساعتها قلبي كان هايتخلع من كتر الدق، حسيت إني أنا كمان عاوزة أحضنك.

– يعني صاحبتك اللي خاصمتيها طلع عندها حق وبُعد نظر كمان!

تضاحك الاثنان، ثم التفت ماجد نحو سارة بعد أن أخذت رشفة من قهوته:

– الولاد فين؟ وحشوني قوي.

– راحوا مدارسهم من بدري يا جميل.

– استحمليني يا سارة، أنا منهك، حاسس إني محروق نفسيًّا.. إنتي فاهماني.

ردت سارة بوجع:

– حاسة بيك يا ماجد، ونفسي تفضفض لي زي ما تعودنا من واحنا صغيرين، كنت باحكيلك وتحكيلي كل حاجة، كل حاجة يا ماجد وكنت باشكيلك وتشكيلي.

أطرق ماجد وغمغم قائلًا:

– مش قادر ولا هاينفع يا سو.

– بص اعتبرني مش موجودة، وكأنك بتكلم الشجر.

والتفتت خلفها لتشير إلى الخادمة سعاد:

رفع ماجد رأسه لسارة في ذهول وهو يتنسم رائحة الصندل، الذي يُعبِّق الهواء حوله حين جاءت سعاد ووضعت المبخرة على طاولة أمام ماجد وسارة.

ارتبك ماجد وهو ينظر إلى سارة في امتنان:

– سارة، أنا مش عارف أقولك إيه.

نهض ماجد ومد يده إلى سارة وأوقفها ثم ضمَّها إليه بفرح، وهي تقف على أطراف أصابعها لتُقبِّل جبهته وبين عينيه:

– إحنا أصحاب يا ميجو، ودا اللي لازم يبقى جواك وتفضل متأكد منه على طول، أنا عاوزاك سعيد يا حبيبي ومرتاح، عاوزة أحس إن مفيش بيننا حاجة مستخبية، حتى لو كانت..

– أبعدها ماجد عن حضنه ببطء وأمسك بذراعيها، ولكن رائحة الصندل أخذته بعيدًا، إلى الجبال السوداء في إثيوبيا، إلى وجه بيرسينّا، إلى عينيها اللتين تنفذان إلى روحه، إلى الشغف في ابتسامتها، وأنهار الحنان في لمسة كفيها، ووهج الدفء في أحضانها.

ابتلعت سارة نيران كبريائها المحترقة، وهي ترى روحه تُحلِّق بعيدًا عنها إلى روح امرأة أخرى تسكنه، ترى طائرها يغادر عُشَّها ليستوطن أشجار الصفصاف، وتراقب مشاعره تسرح مع عبق الصندل.

انسحبت سارة تاركة ماجدًا في الحديقة، لم ترد أن تثقل عليه، أو ربما، لم ترد له أن يرى لآلئ حزنها تنهمر من عينيها.

في غرفة المعيشة، جلست سارة ساهمة أمام برنامج تلفزيوني لا يستحق حقًّا المتابعة، ولكن سارة كانت تبحث عن خلفية لا جدوى لها لأفكارها، كانت تهوي إلى القاع منذ أسابيع في علاقتها بماجد، ربما ارتطما بالقاع فعلًا، ولكنه دفع بقدميه ليصعد إلى السطح من جديد، استعاد كثيرًا من ليلقته النفسية والبدنية، في الأسابيع الماضية كان يتعافى ببطء، ولكنه أعاد إشعال جذوة روحه، واستعاد بعض بريق عينيه، ولكن ماذا عنها؟ هل تركها هناك في القاع؟ هل عليها أن تجرجر ذاتًا منهزمة فقط لتحافظ على بقايا حبها له وصورة لعائلة في إطار؟ ربما عليها أن تعتمد على الوقت، وقدرته الشافية، ربما عليها أن تتناسى، أو حتى تنكر أمام نفسها تلك المشاعر الحارقة التي تتغذى على أعصابها وثقتها بماجد وبنفسها.

بعد أيام، فاجأها ماجد برغبته في السفر إلى الصعيد لزيارة أهل صابر، وأداء واجب العزاء الذي تأخر كثيرًا، ورغم قلق سارة عليه من مجهود السفر البدني، والمجهود النفسي في وجوده وجهًا لوجه مع فَقْد صابر، فإن الطبيب باركَ هذه الخطوة.

جهَّزت سارة لماجد حقيبته الصغيرة للبقاء يومين عند أهل صابر.

- طب آجي معاك يا ميجو؟

- مش هاينفع يا سو عشان الولاد، أنا اتفقت مع محمود وهو حجز خلاص في قطر الساعة ٤، ما تقلقيش أنا كويس، أنا عارف إن دي حاجة هاتسعد صابر، الله يرحمه.

تذكر ماجد أحاديثه مع صابر، وحيرته في أنه سيمضي بلا ذِكرٍ، ودون أن يعرف الناس بطولته، وحديثه عن التقدير.

- نفسي أحكي للعالم كله يا سارة عن صابر وشجاعته ورحلتي معاه، بس ع الأقل أهله لازم يعيشوا طول عمرهم فخورين بابنهم، اللي ضحى بنفسه عشان بلده، واستشهد في حب البلد وبإيمان كبير باللي هوا عمله وضحى بروحه عشانه.

كتمت سارة قلقها عليه أمام إصراره، وودَّعته والدته وقلبها يتمتم بالدعاء أن يحفظه الله من كل سوء.

أحضان مالحة

جلست سارة مع صديقتها منال في حديقة النادي، وأطفالهما يلعبون في الأرجوحة المقابلة، كانت سارة تبدو ساهمة، تقطب أحيانًا لخاطرٍ يمرُّ برأسها ثم ما تلبث أن تتلهى في ولديها أمامها، كان واضحا أنها في صراعٍ نفسي لم يخفَ على صديقتها المقربة منال، التي كانت في ماراثونات عقلية كيف تحمل سارة على الكلام دون أن تضيف إليها وجع البوح، هل تتركها تتلهى بلعب ولديها ربما تدفن همومها في حديقة النادي أم أن الكلام سيخفف ولو قليلًا من حملها الذي يتثاقل كل يوم بعد عودة زوجها ماجد؟ بعد أن وضع النادل فنجانين من القهوة أمامهما، وأخذت سارة رشفتها الأولى ثم وضعت الفنجان وهي تبدو أفضل، غريب مفعول رشفة القهوة! كيف تعيد ترتيب قطع المزاج المتناثرة، وتلم شعث الروح المتعبة؟ كأن سيمفونية المرارة تلك تعيد تصحيح إيقاع الحياة. باغتتها منال:

– طمنيني يا سارة.

– الحمد لله يا منال.

إجابة سارة رفعت درجة الاستعداد داخل منال لما هو قادم، قررت أن تنكأ الجرح لترى مدى عُمقه، وهي تشعر بكمٍّ الوجع الذي تعانيه صديقتها من نظرات عينيها التائهتين وحيرة كلماتها.

– يعني خلاص، ماجد رجع زي الأول؟ سارة أنا حاسة بيكي فما تحاوليش تخبي.

هزَّت سارة كتفيها بلا مبالاة:

– عادي، كويس.

– يا بنتي طلعي من مخك حكاية إن فيه واحدة تانية في حياته.

نظرت سارة إلى منال نظرة ثاقبة، واعتدلت وهي تبدو كأنها أضافت إلى عمرها سنوات طويلة خلال الأشهر الماضية، نظرت سارة إلى السماء كأنها تستلهم الكلمات لتعبر عما يجول بخاطرها، زفرت قائلة:

– منال، إنتي عارفة ماجد بالنسبالي إيه، بس انتي مش عارفة يعني إيه يبقى حبيبك في حضنك وانتي حاساه بعيد، حاسة حضنه مالح ما بيرويكيش، يعني إيه تبقى عنيكي في عنيه ويسيبك ويسرح ويبتسم، يعني إيه تحسي الكلام مخنوق جواه، لأنه اتعود يحكيلك على كل حاجة، في حاجة مش عاوز يقولها ومعذباه، أنا حاسة بيه، بس حاضر، هاطلع الموضوع من دماغي عشان أقدر أعيش.

أمسكت منال بيد سارة وشدَّت عليها مواسيةً:

– ربنا يعينك يا سارة يا حبيبتي، دا وجع حقيقي، ربنا يهديهولك ويرجع لك زي الأول يا رب.

ثم أردفت متسائلة وهي تنظر من خلف كتف سارة:

منى دي اللي بتجري هناك؟

جاءت منى، ثالثتهما في صحبة النادي راكضة، هي صديقتهما رغم أنها تكبرهما بثماني سنوات، تعارفن في حديقة النادي، وتآلفت أرواحهنَّ رغم أن صراحتها جعلت الصديقتين تُفلتران كثيرا مما يخبرانها به؛ لأنهما تدركان أنهما لن تسلما من التقريع، والتصحيح لكل أفعالهما. رغم امتلاء جسدها فإنَّ منى كانت تتحرك برشاقة، لا يعوقها إلا خوفها من انكشاف صدرها فتعكف على شد غطاء رأسها الطويل ليغطي صدرها، وباليد الأخرى تتأكد أن البالطو لا يكشف بنطالها أسفله، ومع كل ذلك تحافظ على سرعة حركتها. لوَّحت لهما وهي تقترب:

– يللا بسرعة مفيش وقت.

نظرت إليها منال باستغراب:

– يا بنتي طب سلمي علينا زي الناس.

– أنا ما صدقت لقيتك أنتي وهي.. مفيش وقت، حلقة القرآن في المسجد كمان تلت ساعة.

تنهدت سارة مُردفةً:

– معلش يا منى، مرة تانية.

قطبت منى جبينها وهي تنقل نظرها بين سارة ومنال:

– هو إيه اللي مرة تانية! هوا أنا عازماكم على فنجان شاي إنتي وهي! أنا باقولك يللا نحضر حلقة القرآن.

اعتدلت لها منال وهي ترد بعصبية:

– يا ماما إنتي عيالك كبروا وفوقتي.. أنا عن نفسي ماحفظتش.

– طب تعالي اسمعي تفسير، وبعدين مش حكاية فضاوة يا ست منال، رتبي انتي بس أولوياتك. ماشي براحتكم أنا مش عاوزة أتأخر، يللا سلام.

ثم لاحظت هدوء سارة الزائد، فوضعت يدها على كتفها وقالت بصوت ودود:

– آه صحيح يا سوسو، طمنيني على ماجد.

ابتلعت سارة ريقها، تبحث عن رد لمنى، لم تجد إلا أن تحمد ربها على كل حال.

احتضنت منى رأس سارة بصدرها الرحب، وأرست قُبلة مغموسة بالحنان على جبينها.

ثم قالت بحنان:

– ربنا يتم شفاه على خير يا رب حبيبتي.

ثم سحبت كرسيا لتقترب من سارة وتهمس في أذنيها:

– ربنا بيغير على قلوب عباده يا سارة.

نظرت منال في توجس إلى منى:

– بتقوليلها إيه يا منى؟ سيبيها في حالها.

أكملت منى، وهي تحاول أن تنظر إلى عيني سارة في ثبات:

– من غير ما ندري، بنختار اختبارنا لما بننشغل بيه، أو بيبقى في قلبنا زيادة.

نظرت سارة بحسرة وقلق إلى عيني منى الحانيتين:

دا جوزي يا منى وحب عمري.. أعمل إيه؟

– حبيه وساعديه بس ما يملاش قلبك غير ربك يا حبيبتي.

قامت منى وهي تعدل هندامها قبل أن تنطلق مسرعة:

– وانتي يا موني هانم.. تعالي بدل ما ربنا يجيبك على مالا وشك.

زفرت منال بغضب:

– يا ساتر عليكي يا شيخة الملافظ سعد صحيح.

عاد ماجد من رحلته إلى الصعيد، وقد استعاد كثيرًا من لياقته النفسية، جلس يحكي لوالدته وسارة، كيف جمع والد صابر رجال قريته في المندرة، ليستمعوا من ماجد عن حديثه عن صابر وبطولته طبعًا دون ذكر التفاصيل

الحقيقية للمهمة، وفرحة أهل القرية جميعهم بزيارته مع محمود، وعن سعادة والدة صابر بزيارته لها، ووعده لها بأن تتكرر الزيارة، وأن يعود بلؤي وملك معه لزيارتها في المرة القادمة، كان ماجد يشعر بالفرح لتمكُّنه من تحقيق أمنية عزيزة على صابر، ويحمد الله على توفيقه في تلك الخطوة، وزاد من فرحته معرفته أن الكثير من القيادات قد جاؤوا لأداء واجب العزاء في صابر، وأن العديد من زملائه يداومون على زيارة أهله وتفقُّد احتياجاتهم، ردًّا لجميل صابر ومساندته لهم في أفراحهم وأتراحهم، ورغم مشقة الرحلة بالقطار فقد دبَّ فيه النشاط، واستعاد بعدها كثيرًا من عافيته البدنية والنفسية.

وحدها سارة كانت تشعر أن ماجدًا ما زال بعيدًا عنها، رغم أنها أصبحت تشاركه جلسته في الحديقة كل صباح، ولكنه عند لحظة ما، كان يفارقها ويدور في دوائره وحده مع ذكرياته.

في موعده المعتاد، جاء الطبيب للقاء ماجد في جلستهما الأسبوعية، فاستأذنت سارة، وذهبت لتعدَّ لهما الشاي.

– أخبارك إيه يا ماجد؟

– والله بفضل الله أحسن كتير يا دكتور.

– الحمد لله يا ماجد، أنا مبسوط جدًّا وشايف إن احنا ممكن نكتفي كدا بالجلسات بتاعتنا وانت ممكن تجيلي لما تحس انك محتاج تتكلم معايا.

كان الطبيب سعيدًا من التحسن في حالة ماجد النفسية، وقد استقر على أن يستمر في العلاج لمدة قادمة، ولكنه كان راضيًا من توقُّف نوبات البكاء

التي كانت تصاحب ماجدًا، ولحظات التيه التي كانت تُفقده تركيزه وشعوره بمن حوله. وماجد كان ممتنًّا لوجود الدكتور محمود سالم في هذه الفترة من حياته، وحده الله يدري كيف كانت حياته تسير نحو نهاية كئيبة ومظلمة لولا العلاج والجلسات من الطبيب، ولولا صبر سارة على انهياراته المتتابعة في الفترة السابقة.

– أنا باشكرك يا دكتور.

– الشكر لله يا بني، ساعات الواحد بيمر بظروف فارقة في حياته، بس بتعدي، بيتعلم منها.

رفع ماجد رأسه متأملًا في أشجار الصفصاف وعلق قائلًا:

– فيه حاجات.. بتغير الإنسان للأبد، عمره ما بيرجع زي الأول.

– بتاخد وقتها.. كل حاجة بتاخد وقتها يا ماجد، الذكريات والمواقف ليها دورة حياة.

قاطعه ماجد وقد بدا عليه الضيق والقلق.

– بس أنا مش عاوز أفقدها! دي ذكريات جميلة، دي حياة غير الحياة.

– ممكن تحكيلي عشان أفهم؟

– أنا محتاج أحكي، بس سارة، أنا مش عاوز أجرحها بكلامي، كفاية المعاناة اللي جوايا.

– إحنا اتفقنا إن اللي بيننا هنا محدش بيعرفه ولا بيطلع عليه، اطمن يا ماجد.

ملأ ماجد صدره بالهواء ورفع رأسه يتأمل أشجار الصفصاف، ثم تنهَّد على مهلٍ وأردف قائلًا:

– عارف لما تلاقي حد ما بتحتاجش معاه إنك تتكلم، بس بيفهمك، حد تتخلق بينكم كيميا ومشاعر بكر، زي الأرض ترويها وتشوفها بتخضر وترتبط بكل تفاصيلها، حد بيشوفك من جوا، بيقراك من غير خريطة، مفاتيح روحك تبقى في إيده، وتبقى مطمن على حياتك معاه، كإن ربنا بعتها عشان أتولد من جديد، معاها حسيت إني باتولد من رحم حبها ورعايتها، وخوفها وقلقها عليا من غير تملك ولا أي التزامات، حد بيدي من قلبه من غير أنانية البشر في طلب المقابل حتى في الحب والاهتمام.

اعتدل الطبيب وتكلَّم بحذر:

– انت كلمتني عن علاقتك بسارة قبل كدا، وقصة حبكم اللي..

أطرق ماجد وهمس بوجع:

– مش سارة.

– مين يا ماجد؟

– بيرسينّا.

– كمّل، أنا سامعك.

– مش بتفارقني، بقت حتة مني، جزء من خلايا جسمي، مش قادر أنساها ولا أكمل حياتي من غيرها.

– ممكن أسأل عرفتها فين؟ اسمها مش عربي.

– بدون دخول في تفاصيل.. هي واحدة، إنسانة أفريقية، اتعرفت عليها في صحراء بلد أفريقي، الحقيقة هي.. أنقذت حياتي، إنسانة بسيطة، ساعدتني واحتوتني، و.. حبتها، حب مختلف، حب مش محتاج أبجدية عشان الإحساس يوصل، حد بيحس بألمك قبل ما تتألم فيخفف عنك، ويحس بجوعك فيملاك اهتمام لحد الشبع، إنسانة بتملا فراغات روحك، وتحس بيها هي كمان مليانة بيك، رغم إنك مش بتقدم غير الصحبة وابتسامة هزيلة ووجع ويمكن في بعض الأحيان بتكون عبء.

لمح ماجد سارة قادمة بصينية الشاي، فابتلع ريقه، وابتلع شعوره بالذنب تجاه سارة، وصمت مُحوِّلًا نظره للأرض. وضعت سارة الصينية على الطاولة وابتسمت للطبيب قائلة:

– ربنا يكرمك يا دكتور، أنا مش عارفة أشكر حضرتك إزاي.

– أبدًا يا هانم، دا واجبي، أنا سعيد إني اتعرفت على عيلة جميلة زيكم، أنا هاسيب لحضرتك الروشتة وهاا اشرح لحضرتك قبل ما امشي وأحدد لك إيه العلاجات اللي هانكمل عليها لمدة شهر قبل ما أشوف ماجد في العيادة عندي بإذن الله، وطبعًا تليفوناتي معاكي يا فندم تحت أمركم في أي وقت.

ابتسم الطبيب لسارة وأومأ برأسه، ففهمت أنه يود أن يكمل جلسته مع ماجد على انفراد، اسـأذنت سارة، فالتفت الطبيب إلى ماجد باهتمام بعد أن ألقى ظهره على الكرسي وأسند رأسه إلى كفه سارحًا ببصره بين الأشجار.

– بص يا ماجد، اللي انا فهمته، وصحح لي لو اللي وصلني مش صح، انت بتتكلم عن علاقة خارج حدود الزمان والمكان.

نظر ماجد إلى وجه الطبيب بشغف، يبدو أن هناك من يستطيع توصيف عشقه لبرسينّا، ربما لديه حلٌّ ناجع ليُريح قلبه ويهدئ خاطره.

أكمل دكتور محمود:

– قصة رومانسية، حدوته زي قصص ألف ليلة وليلة، حالة يمكن نادر إن حد يعيشها في الحقيقة، ويمكن عشان هي ساحرة أكتر من إمكانيات مشاعرك، كان صعب عليك إنك تفقدها وترجع لحياتك الحقيقية من غير ما تحدث هزة في أحاسيسك، وارتباط في اللاوعي عندك فمش عاوز تنساها.

رَدَّ ماجد وقد جرفه حنينه لأيامه مع بيرسينّا، فأطلق لسانه بالبوح:

– فعلًا يا دكتور، أنا كنت معاها خارج حدود الزمان والمكان، كنا في عالم خاص بينا، اختصرنا الدنيا في إننا "هي وانا " بس، يمكن أكتر من شهرين، وانا في حلم رغم الألم، والإصابات لكن وجودها جنبي كان دوا، وكان دفا، وكان أمل، أنا حبيت ملامح صمتها، وصوتها في الكلام اللي مافهمتوش، بس حسيته، روحين امتزجوا بحنين وحنان، وشوق مكانش بيتروي بحاجة بين راجل وست.. لا أبدًا، كانت عينينا بتحضن بعض، ولمسة إيديها بتهدهدني

زي طفل في حضن أمه، وصوت غُناها بيخلق جوايا حالة من الخشوع، كأني باصلي في محراب.

تنهد دكتور محمود وهَزَّ رأسه:

– مش عارف إنت محظوظ قوي، وللا...

دفن ماجد جبهته بين كفيه، كمن يندب حظَّه:

– أو غبي قوي عشان أسيب الحلم دا واصحى منه بإرادتي، وأفقد الإنسانة اللي ربنا بعتهالي، وأتخلى عنها وأديها ضهري وامشي من غيرها.

مَدَّ الدكتور محمود جذعه في اتجاه ماجد، كأنه يريد أن يقترب منه أكثر ليشاركه حيرته، ثم قال بصوت حازم:

– وانت شايف كان ممكن يبقى فيه حل تاني؟ اللي فهمته منك إنها امرأة، يعني اسمح لي، عايشة حياة بدائية في صحراء أفريقية! يعني إيه فرصتها؟ يعني لنفرض إنك فكرت.. مش عارف أقول لك إيه يا ماجد.

نظر ماجد إلى الطبيب في شغفٍ وألم، ينتظر منه وصفة إنقاذ لقلبه الذي يتمزق ولعًا، وروحه التي فَقَدَت موسيقاها الداخلية ببُعده عن بيرسينّا، فغلفها ضجيج صامت، ودقات قلبه التي أصبحت نشازًا، في سيمفونية غير منتظمة، ولكن الطبيب لم يزده إلا حيرة، بتشخيص دون علاج.

أكمل الطبيب على أمل أن يقنع ماجدًا بأن يطوي صفحة بيرسينّا:

– انت عملت اللي أي حد لو فكر بشكل منطقي كان هايعمله، فكرت

في عيلتك وفي بلدك وشغلك وحياتك، دا طبيعي ومنطقي يا ماجد، هي كمان استحالة تقدر تعيش في المدنية بتاعتنا عشان تبقى عارف، زي ما قولتلك علاقتكم دي كانت خارج الزمان والمكان، دا سحرها ولو حصل في تفاصيلها أي اختلاف دا ها يعريها من خصوصيتها، انت اتصرفت صح يا ماجد.

غمغم ماجد في حزن:

- مش عارف، مش عارف.

- صدقني، احتفظ بالذكريات الجميلة والمشاعر الراقية دي، وارجع لزوجتك وولادك، مراتك بتحبك جدًّا، هي كمان حكت لي عن قصة حبكم، ما تخسرهاش يا ماجد.

خرج الدكتور محمود سالم، تاركًا ماجدًا يفكر في حوارهما عن بيرسينّا. أخرج ماجد أعواد الصندل من جيبه، وألقاها في المبخرة المشتعلة أمامه، فتوهجت الجمرات وعلا صوت اشتعالها، وتعالت أشرعة الدخان المُعبَّق برائحة الصندل، تتراقص أمامه، كأن روح بيرسينّا تُحلِّق أمام أشجار الصفصاف، وتختفي في الهواء، وماجد يستبقيها بأنفاس يتنسمها إلى رئتيه علَّها تختلط بذرات كيانه وتبقى فيه للأبد.

تغيُّرات

كانت أشعة الشمس تحاول الهروب من حصار الستائر التي أغلقتها والدة ماجد، لعلها تُقلل من حرارة الغرفة التي أصبحت تشعلها دومًا فاطمة والدة سارة بزياراتها لهم، وقلقها على ابنتها وحفيديها، جاءت لزيارتهم هذا الصباح حاملة قلقها وتساؤلاتها عن استمرار الوضع بين مرض ماجد وبقائه بلا تقدم في حياته العملية، وتأرجح نفسية ابنتها التي أصبحت تستقرئها من مكالماتها الصباحية وأحيانًا زياراتها لها.

– والله يا درية باقول لسارة تجيب الولاد وتقعد معانا شوية، أنا عارفة قد إيه دا تعب عليكي يا حبيبتي قعدتهم معاكي ودوشة العيال، معقولة كل دا بعيد عن بيتهم؟ مجهود عليكي برضه.

ابتسمت درية في وُدٍّ:

– لا يا خبر دول منورينِّي، ولا مجهود ولا حاجة أبدًا، هوا احنا دورنا بيخلص يا فاطمة؟ إحنا حياتنا كلها لهم.

– أيوه بس برضه الموضوع طول قوي، وانتي عارفة سارة روحها في ماجد يا ديدي، بالعافية بتيجي يوم الجمعة عشان باباها يشوف الولاد، أقولها يا بنتي خليكي معانا وماجد بقى كويس، مابترضاش.

– ربنا يخليهم لبعض يا رب، والحمد لله إحنا كنا فين ماجد فعلًا أحسن كتير.

ولكن حوار فاطمة كان دومًا يأخذ منحى يضغط بعنف على أعصاب درية:

– الحمد لله، أنا كمان حاسة فعلًا إنه أحسن كتير، عارفة لو يشغل نفسه بأي حاجة، أي شغل يا ديدي أفضل من إنه يقعد كدا في الجنينة ويفضل يفكر في اللي جرا، شجعيه يخرج من اللي هوا فيه دا.

– بإذن الله يا فاطمة قريب بإذن الله، إحنا كنا فين، إن شاء الله هايوقف على رجليه تاني وكل حاجة هاترجع زي الأول وأحسن، هو ابتدى يشوف موضوع شغل جديد فعلًا، وربنا يوفقه.

– أكيد ممكن يلاقي شغل مناسب هايساعدوه في الجيش، أو يعمل أي حاجة بدل ما هو قاعد في البيت كدا.. أهه يا ستي، اتفضلي! سوسو سابتني وراحت تقعد معاه، هاقوم أنا بقى أروّح عشان ما اتأخرش محمود بيحب يتغدى بدري، ربنا يكون في عونك والله قعدة الراجل في البيت صعبة قوي ربنا يكون في عونكم وماجد يرجع يشوف حياته تاني.

كانت كلمات فاطمة الحارقة تتوغل إلى قلب درية وتعتصره، فيمتقع وجهها ويصاحبها الصداع بقية اليوم، وتُلازِم غرفتها تصارع الأفكار التي أصبحت تزرعها فاطمة في رأسها في كل زيارة.

كعادته، خرج ماجد إلى الحديقة في الصباح ليتناول قهوته الصباحية بعد أن سلَّم على والدة سارة، ولحقت به سارة بعد أن جلست قليلًا مع والدتها، جلسا معًا، كأنها تهرب من لقاءات والدتها التي أصبحت كالمطارق فوق رأس أيامها، بأسئلتها المتكررة عن وضع ماجد، وما تراه في مصلحة سارة والولدين، حتى جاء موعد عودة لؤي وملك من المدرسة، فذهبت سارة لجلبهما.

دخل لؤي مسرعًا عند عودته من المدرسة وارتمى في حضن أبيه متحمسًا:

– باابي، مامي هاتبقى معانا في المدرسة على طول.

جاءت سارة ضاحكة وسعاد الخادمة تركض لتلحق به:

– تعالي يا سعاد خودي الأستاذ دا يغير هدومه عشان نتغدى.

اتسعت عينا لؤي وقد تهلَّل وجهه، يكمل حديثه لوالده في حماسةٍ:

– والله بجد يا بابي! مامي هاتبقى مُدرِّسة معانا في المدرسة.

نظر ماجد إلى سارة مستفهمًا بعد أن انطلق لؤي إلى داخل المنزل:

– إيه الحكاية دي يا سوسو؟

هزت سارة كتفها تتصنع اللامبالاة:

– لما روحت آخد الولاد لقيت المديرة طالبة تقابلني، كانت حنان مدرسة لؤي كذا مرة تقول لي إنهم عاوزين مدرسات وعاوزاني أشتغل معاها في المدرسة.

– وبعدين؟

– ولا حاجة انهاردة المديرة قابلتني وسألتني عن مؤهلاتي، وطبعًا هي عارفاني وقالت لي إنها برضه عاوزاني أبقى معاهم.

ابتسم ماجد في هدوء:

– وانتي رأيك إيه؟

نظرت سارة إلى ماجد نظرة حائرة أعادتها في عينيه تلك الصغيرة التي لا تخطو خطوة دون رأيه:

جذبها ماجد وأجلسها على قدميه:

– قوليلي بقى، إيه اللي مخليكي قلقانة؟

– يا ميجو، أنا عارفة إني هاعرف أتعامل مع الولاد، بس المدرسة مش أطفال بس، فيه أولياء الأمور والمدرسات التانيين، و.. مش عارفة بقى.

رفع ماجد خصلات شعرها ليرى ملامحها:

– جربي يا سو، إيه المشكلة! لو اتضايقتي ما تكمليش.

– انت عارف يا ميجو، إحنا اتجوزنا وانا في الكلية، يعني تقريبًا مكنتش باروح ولا اتعاملت مع ناس بشكل يومي، ومليش صحاب كتير، والناس اتغيرت.

كانت سارة توضِّح أسباب قلقها، ولكن ماجد كان يبدو واثقًا بتلك الخطوة القادمة، ومُعوِّلًا على أهميتها في أن تعيد إشراقة وجه سارة من جديد:

– أنا متأكد أنك هاتنجحي وهاتنبسطي جدًّا من التجربة، لولي وملوكة كمان هاينبسطوا.

ابتسمت سارة بطفولتها المحببة:

– آآآآه جدًّاااا، هي حنان قالت لي هاسلّط عليكي لؤي هو اللي هايقنعك.

تهلَّل وجه ماجد وهو يرى قسمات وجهها تشرق بفرحة جديدة:

– لؤي وبابا لؤي كمان يا حبي.

ارتمت سارة في أحضان ماجد تُقبل وجنتيه.

– ربنا يخليك ليا يا ميجو، كنت محتاجة أسمع الكلام دا جدًّا.

لفَّ ماجد ذراعه خلف عُنقها، وقرَّب وجهها بكفيه ولثم شفتيها، يحكي لها بشفتيه عُمرًا كاملًا من الحب، لحبِّ عمره، سارة.

أزاح شفتيه عن شفتيها، ورفع عينيه يتأمَّلها وقد أغمضت عينيها، وحلقت في سماء الولع، جاءه صوتُها من جوف الحلم، وهو يكمل بشفتيه رسم أحرف عشقه على عنقها.

– كل دا شوق ليا أنا؟

همس ماجد بين خصلات شعرها:

– لا دا مش كله يا سو.

مع ساعات الفجر الأولى، تلمست سارة ماجد الذي انسل من أحضانها، وترك سريرهما في هذا الوقت المتأخر، كانت تعرف أين تجده وهي مغمضة عينيها، لا بد أنه نزل إلى الحديقة، كعادته مؤخرًا، لو فقط تستطيع إقناعه بالعودة إلى شقتهما، لو أنها تنجح في إبعاده عن تلك الأشجار، كانت هذه الأفكار تتزاحم في رأسها وهي تنزل لتلحق به في الحديقة.

– ميجو حبيبي، الجو برد عليك.

وضعت سارة بطانية خفيفة على كتف ماجد، ولكن ماجدًا لم يلتفت إليها، كان يتمتم بأحد الأهازيج التي اعتادت بيرسينّا أن تغنيها له وحفظها منها، وكانا يرددانها معًا، كأنه عهدٌ بالوفاء بينهما للأبد.

وضعت سارة كرسيًّا لها بقربه، وظلت ساكنة تلتفت إليه، ثم تُحدق إلى الأشجار أمامها تحاول أن تستبين إلامَ ينظر ماجد؟ وما الذي يسترعي انتباهه؟ وتحاول أن تتبيَّن اللحن الذي يُدندن به في شجن:

– ميجو، ينفع نرجع بيتنا بقى، الولاد مفتقدين لعبهم وأوضهم، طب انت ما وحشاكش بيتنا، فاكر؟ كل حاجة فيه ليها قصة إزاي جبناها و..

شعرت سارة أن ماجدًا لا يُنصت لها أصلًا، فآثرت الصمت، ثم انسحبت إلى غرفتهما، تتقاذفها أمواج الحيرة، فرغم تحسُّن ماجد، واختفاء نوبات البكاء

القاسية التي كانت تحيله إلى قِطع زجاج مُهشَّم، لا تستطيع أن تجمعه دون أن تجرحها هشاشته، ودون أن يفقد قِطعة واضحة تترك أثرها في صحته، فإنه ما زال يسافر بعيدًا في خياله، وينفصل عن دنياه هنا، إلى دنيا أخرى، هناك، بين أشجار الصفصاف، وعبق بخور الصندل، ما زالت هناك خطوة ليعود ماجد كما كان قبل سفره الأخير، الذي عاد منه بهذا الكمِّ من الألم والحزن الذي ألقى ظِلاله على ملامحه الهادئة، وتوغل في روحه الودود، فبات قلقًا ومكتئبًا، ورغم معاناتها معه ليلتزم بالعلاج، فإنها سعيدة بالتئام العديد من جروحه النفسية بقدر ما تحسنَّت أيضًا حالته الصحية، وأصبح يمشي بشكل أفضل إلا أنه لن يستطيع العودة إلى كتيبته من جديد، ولكنه يبدو مرتاحًا إلى هذا القرار، ولا يبدو أن هذا يؤرقه أو يشغل باله، بعد أن قرر أن يكون له مكتبه الخاص، وبات هذا يقتطع جزءًا كبيرًا من وقته في التجهيزات والترتيبات، وأعطاه مساحات بعيدًا عن أشجار الصفصاف، التي مهما يكن إرهاقه يحرص على الجلوس بين أحضانها ولو لحظات.

كان كمن يقاوم النسيان، يأبى إلا أن يُعيد نفسه إلى أحضان الأشجار وعبق الصندل، وقفزت إلى ذهنها كلمة بيرسينّا، ترى، مَن تكون؟ قلبها يُحدِّثها أنه اسم امرأة تعذب زوجها، اسمها دومًا معجون بالبكاء والدموع، ونداؤه لها دومًا مسكون بالألم والحسرة، حتى في نومه، يصحو مفزوعًا يمدُّ يدَه ويصرخ باسمها، مَن تكون هذه الروح الشريرة التي ألقت تعويذتها على قلب ماجد، وتوغلت برائحة الصندل في روحه، وأشربته كآبة لا مناص منها ولا خلاص، من تكون هذه الـ برسينّا، التي احتلت جسد زوجها فتهاوى عليلًا متململًا باسمها، لو فقط أعرف من هي؟

بيرسينّا

يوقِنُ أنَّ وراءَ الحائِطِ نَهْرا
يُدرِكُ أنَّ القَمَر سَيكتُبُ شِعرا
لولا خَجَل النَّجمات
يَبكي.. يبكي يبكي
حِينَ يُوَدِّعُ طَيفًا
شارَكَهُ ظِلَّ غَمام
أو رَبَّتَ كَتِفَ الخَيبات

عادت سارة مع طفليها وكالعادة، جاءت لتفتح أمام ماجد صندوق حكايات يومها مع الأطفال في المدرسة، وماجد يستمتع بشغفها الجديد وحكاياتها الممتعة. ثم خرجا معًا مع طفليهما إلى النادي وبعض الزيارات،

وفي المساء بعد أن أويا إلى الفراش، تململ ماجد، وتقلب قليلًا، ثم استسلم للرغبة الملحة داخله في الخروج إلى الحديقة، ليقضي بعض الوقت مع أشجار الصفصاف بعد أن قضى وقته خارج البيت طوال اليوم. نهض بعد أن ربت على سارة.

– نامي إنتي يا سو، وراكي شغل بكرة، انا مش جايلي نوم.

سار ماجد بخطى متسارعة سعيدة حتى وصل إلى باب الحديقة من غرفة المعيشة، فتحه ببطء حتى لا يزعج أمَّه التي تنام في الغرفة المجاورة، ثم خرج حافيًا يسير بخفةٍ على العشب المبلل من برودة الجو، وهو يتأمل أشجار الصفصفاف وحفيف أوراقها يعزف همسًا يُطربه.. ودَّ ماجد لو صرخ بكل كيانه:

– بيرسينّا وحشتيني.. املئي بحضورك الطاغي فراغات روحي دونك، افترشي مروج روحي ودعيني أحكِ لك عن شوقي إليكِ، دعينا نردد معًا أهازيج ولعنا، ونعزف لحنًا يُعيدني إليكِ رغم البُعد.

كان كرسيه يقبع في مكانه قريبًا من الشجرات اللاتي يشعر أنهن يبادلنه شوقًا بشوق، تأمَّل ماجد بقايا رماد أعواد الصندل في المبخرة، التي أصبحت لا تُغادر الطاولة الموجودة أمام كرسيه، وكأن مكانه هذا أضحى مِحرابًا يتبتل فيه، ويبث وجْدَه وعِشْقَه الطاهر لأشجار الصفصاف، وملكته المُتوَّجة.. بيرسينّا، أغلى الشجرات في غابات الولع.

بدأ يشدو بترنيمته المُحبَّبة وهو يغمض عينيه ويتمايل كدرويش أصابه الجوى، يدور في دوائر شوقه لعينيها ودفء كفَّيها على وجهه، ويمرر يديه على سطح الرماد، يربت عليه، فتشعله نعومة ملمسه كأنه يلامس روح بيرسينّا، وتشتد صبابته فيضع يده على قلبه، يا رب، كيف السبيل؟ وكل نبض في حناياي يناديها، كيف السبيل؟ وقد ألقت عليَّ تعويذة عشق فأصبحت أسير هواها، كيف السبيل وأنا ممزق في البعد، مغترب في ذاتي، أذوب كملح الوجع في نيل الشوق؟

كانت ليلة قمرية، وخيالات النور تُراقص ظل الشجر، وتبحر به إلى الجبال السوداء في إثيوبيا، وإلى الكهوف الباردة وخيال بيرسينّا على تلك الصخرة البعيدة، بيرسينّا! هل تستحمين في ضياء القمر الآن؟ هل تبثين شكوى الفِراق إلى النيل الآن؟ هل تلتحفين بوجعك وتأتزرين باشتياقك؟ بيرسينّا أين أنت يا روح الوعد؟

جلست سارة على سريرها تحاول أن تسكت أزيز الأسئلة التي تغلي في رأسها، وأخيرًا قررت أن تواجه ماجدًا، وتطلب منه إجابات واضحة وشافية لحيرتها. فنزلت إلى الحديقة، وجلست برهة بجانبه تستجمع قواها، وتُعيد ترتيب الأسئلة في عقلها المتخم إلى حد الوجع، تحذف بعضها، وتؤجل بعضها، ولكنها انهمرت كالسيل المتدافع كاسحةً أمامها أي فرصة للتراجُع.

– لم يشعر ماجد بسارة وهي تقترب وتسحب كرسيًّا لتجلس بجواره.

– الجو جميل انهاردة.

نظر ماجد لسارة وابتسم وحنينه لبيرسينّا قد أضاء وجهه:

– ماجد أنا عارفة إنك بتحب تقعد لوحدك في الجنينة بالليل، ويمكن الصبح كمان بس، ممكن نتكلم؟ محتاجة أتكلم معاك، ممكن تعتبرني دلوقتي سارة الصديقة مش سارة الزوجة.

التفت ماجد لسارة وقد بدا قلق سارة معديًا، انتشر من عقلها إلى قسمات وجهه.

– طيب وسارة الحبيبة أوديها فين؟

تنهدت سارة ورفعت وجهها إلى عيني ماجد قائلة:

– وبيرسينّا؟

جفل ماجد عندما سمع سارة تنطق باسم بيرسينّا، وسرت في جسده قشعريرة:

– سارة أرجوكي.

– ليه؟ ليه مش عاوز تكلمني عنها؟

– من فضلك يا سارة، مش عاوز أتكلم في الموضوع دا.

– ليه يا ماجد؟ احنا اصحاب، احكيلي عرفتها منين؟

– سارة لو سمحتي، انا مش ممكن أأذيكي ولا أجرح مشاعرك.

تهدج صوت سارة وهي تتساءل:

– للدرجادي بتحبها، من حقي أعرف عرفتها منين؟ انت عمرك ما كان ليك اهتمام بالفيسبوك ولا الكلام الفارغ دا.

نظر ماجد إلى سارة معاتبًا، وقد قطب جبينه، واعتدل في جلسته مدهوشًا:

– إيه اللي بتقوليه دا يا سارة؟

– عاوزة أعرف أومال عرفتها منين؟

– هاتفرق في إيه؟

– مش إحنا أصحاب؟ احكيلي.

– مفيش حاجة تتحكي.

– هي، بتحب ريحة الصندل؟ وللا الريحة دي بتفكرك بيها؟ ليه شجر الصفصاف مهم من ساعة ما رجعت؟ إيه العلاقة؟ ليه كنت بتنادي عليها وانت نايم وتقوم مفزوع وتبكي؟

كانت أنفاس ماجد تعلو، وغضبه يشتعل من سارة التي تنشب أظفار الوجع في أعصابه من جديد.

– سااااارة، من، فضلك، كفاية.

كانت سارة تنتفض وهي تحاول أن تُبقي صوتها هادئًا حتى لا يشق ستار الليل.

– أنا كل الأسئلة دي هاتجنني يا ماجد، احترم مشاعري.

– سارة، أنا باحترم مشاعرك عشان كدا مش عاوز أتكلم.

أسلمت سارة نفسها لبكاء تهدَّجت معه حروفها المغسولة بدموع القهر:

– للدرجادي بتحبها! خايف تجرحني بكلامك عنها يا ماجد؟ سكوتك بيجرحني أكتر، أنا ما استحقش منك تعمل فيا كدا.

– سارة؟ انتي بتتكلمي عن إيه؟ عملت فيكي إيه؟ أنا معاكي هنا! مطلوب مني إيه تاني؟

– لا انت مش معايا يا ماجد، إنت معاها، إنت مش متخيل ولا شايف شكلك لما جيت وقفت جنبك كنت عامل إزاي! أنا عاوزة أعرف ومن حقي أعرف مين بيرسينّا.

نهض ماجد ليترك سارة، فأمسكت بيديه بكلتا يديها لتستبقيه، جلس ماجد والحنق يخنقه من سارة، ومن تصميمها السخيف على نبش جذور لا تعرف مداها، كان يصرخ من أعماقه فلا يخرج صوته من شدة الغضب إلا همسًا، ولكن ملامح وجهه كانت غاضبة ومتألمة:

– عاوزة مني إيه يا سارة؟ عاوزة مني إيه؟ أنا رجعت، سيبت بيرسينّا، ورجعت ليكي وللولاد وللعيشة دي..

قاطعته سارة وهي تمسح أنهار الدموع التي تنساب من عينيها:

– هي مين؟ من حقي أعرف بالتفصيل عرفتها فين وهي مين؟ وعلاقتكم وصلت لفين كمان؟

لم يعد بمقدور سارة التراجع بعد الآن، كانت ترتجف، وتحاول أن تحتفظ بهدوئها الهش، وسط أمواج الدموع التي تضرب جفونها، وتعود لتبتلع مرارتها في حلقها.

كانت أنفاس ماجد تشقُّ صمت الليل، وصدره يعلو ويضطرم، وقد أخذ منه الغضب والحزن منتهاهما.

– عاوزة تعرفي ليه؟ هايفرق معاكي إيه غير إنك تفتحي جروحي، وتعري أعصابي؟ ليه يا سارة بتعملي كدا؟ انتي كدا مش صديقة، انتي إنسانة بتاكلها الغيرة، ومش هامها غير فضول سخيف، ماتجيبيش سيرة الصداقة تاني عشان انتي في اللحظة دي، اتخليتي عنها وعني.

كانت سارة ترتجف تحت سياط كلمات ماجد الغاضبة، ولا تدري كيف تتقيها، وقد انفجر بركان غضبها هي أيضًا:

– بتحبها للدرجادي؟ خنتني يا ماجد؟ بعد كل العمر دا؟ هي الحكاية إنت مع مين؟ وللا روحك وقلبك فين؟ إنت بتتكلم كأنك مجبر تعيش معايا!

– سارة، كفاية كدا بقى، انتي مش مقدرة تعبي.

- وانا!! إمتى هاتقدر الوجع اللي جوايا عشان الموضوع دا.

جلس ماجد مُعطيًا سارة ظهره، يلتقط أنفاسه ليهدأ، ثم التفت ببطء يحاول أن يربت على كتف سارة التي انخرطت في بكاء صامت، فأبعدت نفسها عنه، وتكوَّرت على نفسها في كرسيها:

- سارة أنا قولتلك بلاش نتكلم في الموضوع دا عشان عارف إنك استحالة تتقبليه ولا تستحمليه، صدقيني آخر حاجة ممكن أفكر فيها إني أجرحك.

رفعت سارة وجهها ببطء تتفرس في ملامح ماجد الممزقة:

- وانت لما حبيتها دا مكانش جرح ليا؟

نهض ماجد وحدق إلى أشجار الصفصاف قبل أن يستدير راجعًا إلى المنزل، هامسا لسارة:

- مش بإيدي، مش بإيدي يا سارة.

عودة!

عيناك قصائِد
وبَقَايا أُغنِيَّة
مِن زَمَنٍ يَعْرِفُني
عيناك شِراعٌ يَسْكُنُنِي
بَحَّارٌ عائِد
مِنْ وَهَجِ شَوَاطِئ مَنْسِيَّة

في حديقة النادي جلست منال مع منى يتباحثان ويتناقشان في حال صديقتهما سارة، اختلفتا كالعادة لتبايُن شخصيتيهما، كانت منى ترى أن الحياة لا تسير على وتيرة واحدة، وأن المنغصات هي سنة الحياة.

– يا بنتي إحنا مش جايين نتفسح، إحنا في دار ابتلاااااء.

وكانت منال دائمًا ترى أن الأهم هو نفسية سارة، ومصلحة سارة، كانت قلقة حد الوجع على صديقتها وتوأم روحها، تودُّ أن تنتشلها من دوامات الحيرة، ولكنها تعرف مدى تعلُّقها بماجد.

– لا يا منى ربنا مش خالقنا عشان يعذبنا، لازم تبعد عن ماجد لو هايغرقها معاه، ترجع بيتها وتشوف ولادها.

بينما كانت منى ترى أن علاقة ماجد بسارة طبيعية بين مَدٍّ وجزر، عليها أن تصبر على جزر العلاقة بالتشاغل بأورادها وقرآنها، وعنايتها بأسرتها، إن ما تعانيه سارة نتيجة حتمية لذوبانها في زوجها.

– "قد شغفها حبًّا" يا بنتي دي حاجة غلط، تخرجه من قلبها شوية.

اعتدلت منال في مواجهة منى، وقد احتدت قسمات وجهها وتعالت موجات الغضب في نبرات صوتها:

– كلامك مش منطقي، تخرجه من قلبها يبقى تسيبه وترجع بيتها، إنما وهو قدامها وهي حاسة بانشغاله بحد تاني.

تلقفت منى خيط الحوار بسرعة، لتهدئ من حدة منال، قالت وهي تهزُّ سبابتها أمام وجه منال في ثقة:

– تلاقي ولا فيه تاني ولا تالت، دي أوهامها هي عشان هو مستسلم لحالته دي، أنا ماقولتش إن هو صح، بس يعني مدام حالته مش مأثرة عليهم ماديًّا خليه يا ماما سرحان في الشجر وتشوف هي حالها مع ربها ومع ولادها، أول ما تخرجه من قلبها هايرجع تاني ليها، ببساطة عشان الامتحان خلص.

أخفضت منال عينيها وهي تضيف:

– مش بالبساطة دي يا منى.

كان النقاش يتلاطم بين منال ومنى فلا يكادان يقتربان من الرسو على شاطئ رأي واحد حتى يفترقا مُجددًا، كُلٌّ يتمنى أن ترسو سفينة سارة حيث يراها في أمان وسعادة، وعلى اختلاف رأييهما إلا أنهما اتفقتا على كمِّ الوجع الذي بات يسكن ملامح سارة، ومدى القلق الذي يستوطن قلبها وعقلها، وأنها لا بد لها من نقطة تستند إليها لتستعيد دفة حياتها، بعيدًا عن نوة الانهيار التي باتت تهدد زواجها، ودوامات الشكِّ والحيرة التي تأخذها لقيعان سحيقة، وحده الله الذي يعرف مداها ونهايتها.

جلست سارة في غرفتها في منزل والديها، وطفلاها يستمتعان بأحضان جديهما، كانت تقلب أوراقها القديمة في درج مكتبها، أخرجت حزمة خطابات ماجد لها أيام خطوبتهما، تنهدت وهي تمسح دمعة ألم وحسرة، كم تبدو بعيدة تلك المشاعر الآن، باهتة، باردة أمام وجعها منه. شعرت بيد والدتها تربت على كتفها:

– هاتفضلي كدا لحد إمتى؟

رفعت عينين دامعتين لوجه أمِّها القلق:

– لما ربنا يريد يا ماما.

جلست أمُّها بجانبها وهي تحاول أن تحتفظ بهدوئها، وقد أصبحت مناقشاتهما مؤخرًا مشحونة بالغضب والحزن.

– ونعم بالله يا حبيبتي، بس أرجوكي، اسمعيني مرة أخيرة، لازم تقفي وقفة حازمة شوية وتستردي حياتك، مش عاجبني قعدة ماجد في الجنينة كدا، لإمتى هايفضل كدا.. أنا عارفة في الأول قولت لك استحملي بس كل حاجة ليها حدود، لازم يشوف شغله ويتحمل مسؤولية ولاده.

التفتت سارة نحو أمِّها في غضب:

– ماجد مش مقصر مع ولاده يا أمي.

انتفضت الأم واقفة وقد يئست من النقاش:

– وانتي! أنا تعبت منك يا سارة، لو عاوزاني أكلمه أنا هاكلمه، باباكي مش عاوز يتدخل دا قراره عشان دا ابن أخوه بس انتي بنتي الوحيدة.. كل اللي حيلتي يا سارة أنا....

قاطعتها سارة:

– أرجوكي يا أمي أنا هاعرف أتصرف في بيتي مع جوزي، وأرجوكي ما تفتحيش الموضوع دا تاني.

هبَّت سارة واقفة، وأخذت تدسُّ الخطابات في الدرج من جديد، وتهيل عليها باقي الأوراق، تدفنها بعيدًا من مرآها.

وقفت أمها على مقربة منها، تود لو تهزها لتستفيق، كانت العبارات تختنق في جوف فاطمة، وهي تحاول ألَّا تغضب ابنتها، ولكنها لم تعد تتحمل أن تراها تذبل وتذوي وهي وردتها الوحيدة، كطائرٍ باتت تراها، قد علَّقت

جناحيها بين الأشجار اليابسة، وانغرست بين أشواكها، ولا ترى لها من فكاك.

ابتلعت فاطمة وجعها على ابنتها واحتضنتها وهي تتمنى لو ينتهي هذا الكابوس الذي يأكل شباب ابنتها ويُطفئ نضارتها.

مَرَّت الأيام ثقيلة بين سارة وماجد، لا يكاد يمتدُّ بينهما حديث، إلا قطعته ذكرى حديثهما في الحديقة تلك الليلة القمرية التي خيَّمت بظلمة على علاقتهما، فصارا يتجنَّبان الحديث عن أي شيء، عدا سؤال عابر عن أحوال بعضهما البعض، يُبقي وُدَّهما على قيد الأمل.

شعر ماجد بتغيُّر سارة منذ مواجهتهما الأخيرة، وظَلَّ يفكر فيما يكسر الجدار القائم بينهما، والذي كلما انقضَّ أقامته سارة من جديد، كان يشعر بعينيها تتحاشيان عينيه، ويديها تتفاديان لمساته، إلى أن جاءت عطلة الربيع في المدرسة فعزم على أن يُمضيا الإجازة في أسوان، ربما يُعيد ذلك سارة إليه من جديد. ولكن سارة كانت تعدُّ لأمر آخر.

– ماجد، أنا الحقيقة كنت عاوزة أطلب منك إني أنا والولاد نرجع بيتنا، دا كان رأيك م الأول.

ابتلع ماجد ريقه وقد قطب حاجبيه:

– أنا باقولك إيه وانتي بتفكري في إيه يا سارة!

كانت سارة قد اعتلت صهوة الإصرار، بعد أن جفَّفت ينابيع الاشتياق إلى ماجد، وقررت أن وجوده حولها يعيدها إلى دوائر الشوق التي تتمرد عليها، وتريد أن تهرب خارجها.

– معلش يا ماجد، أنا عمري ما طلبت منك حاجة، بس بجد أنا..

– ليه يا سارة بتعملي كدا؟ ليه مش بتساعديني؟

رفعت سارة عينين دامعتين إلى عيني ماجد:

– عشان اكتشفت إن عندك حق، سارة الزوجة والحبيبة مش قادرة تستوعب اللي حصل، مش قادرة أتخيل إن فيه حتة في قلبك مقفولة على حد تاني، ومش مسموح لي أدخلها، سارة الصديقة دورها خلص كدا، وانت الحمد لله أحسن من الأول.

اقترب ماجد بكرسيه من سارة، واحتضن يديها بين يديه، ورفع ذقنها بإصبعيه مُديرًا وجهها إلى وجهه، وانتظر حتى رفعت عينيها إليه، وقال:

– طيب تسمحيلي أرجع معاكم بيتنا.

تهَّلل وجه سارة، وقد ارتبكت مشاعرها فارتمت في حضن ماجد بين بكاء وضحك، وقد تلاشت الكلمات من عقلها، واختفى الوجع أمام شلال الأمل الذي غمرها به ماجد برغبته في العودة معها ومع الولدين إلى بيتهما، بعيدًا عن أشجار الصفصاف! سيترك الحديقة ومبخرة الصندل من أجلها؟ سيعود إلى عُشهما معًا، أحقًّا استعادته! لم ترد أن تعكر صفو فرحتها، فصرفت كل الأسئلة بعيدًا عن عقلها المنهك من التحديق في مستقبل يُغلفه الضباب، ستمسك بيد ماجد، وتخطو نحو غدها من جديد، كعادته عاد لينتشلها من حيرتها، كآتٍ من زمن بعيد، عاد ماجد، ليكمل فروسيته التي بدأها منذ

طفولتهما معًا، كان دومًا ملجأها، وحِصنها، وفارسها، ودِرعها في مواجهة الدنيا، وسط دموعها كانت تُقبِّل وجهه ويديه، وتتآكل كلماتها المُختنقة:

– سندي وضهري وجوزي وحبيبي وعمري كله، ما تسيبنيش يا ماجد، أنا ماقدرش أعيش من غيرك يا قلبي.

وتفجرت ينابيع شوقها من جديد بعد أن تراكمت عليها رمال القلق وطمرتها رياح الوجع.

احتضنها ماجد بقوة وهو يطمئنها بوجوده:

– أنا جنبك يا سارة، عمري ما هاسيبك، انتي حب عمري وأم أولادي يا سو.

بدايات جديدة

في غرفة مكتبه في شركته الخاصة التي افتتحها للاستيراد والتصدير، والتي تُعبقها رائحة الصندل الذي ينطلق من مبخرة جَدَّته، التي تتوسط الغرفة على طاولة من خشب الورد الفاخر، يتصدر مكتبه الكبير الغرفة، وطقم الكنب من الجلد البني الغامق في الجانب، حيث تُزين عصا الأبنوس الخاصة بوالده الراحل وسط الحائط المقابل لباب الغرفة، وخلف المكتب نافذة كبيرة وعلى جانبيها شهادات تقدير لماجد من القوات المسلحة. على المكتب، يقبع بفخر نوط الشجاعة في علبة من القطيفة الزرقاء، ولوحة زجاجية عليها كلمات الشكر والتقدير.

جلس ماجد في انتظار أصدقائه من الكتيبة، على موعد للقاء وليباركوا خطوته الناجحة في العمل الجديد. قام ماجد من خلف مكتبه، ليستقبل أصدقاءه محمودًا وعمرًا وخالدًا وطارقًا عند باب المكتب متهللًا:

– باشا باشا والله يا ميجو، إيه الجمال والفخامة دي يا بطل.

احتضنهم ماجد بسعادة.

– أهلًا أهلًا، نورتوني وشرفتوني يا رجالة.

ابتسم محمود وهو يجول ببصره في الغرفة:

– ألف مبروك يا حبيبي والله، كنت مراهن عليك، إنك هاتستجمع نفسك وبسرعة، وتعدي من كل اللي حصل لك، وتفاجئنا بنجاح جديد.

– ربنا يخليك يا حودة، الحمد لله.

ردَّ طارق متهلِّلًا وقد أشرق وجهه بابتسامة أصيلة:

– وحشتنا يا عم الشباب، حمدًا لله على سلامتك.

– الله يسلمك يا طروق، كله تمام الحمد لله.

قضى الشباب جلستهم في الحديث عن مشروعات ماجد الجديدة، وأحوال الجيش والبلد، ضحكوا كثيرًا، وفاجأهم ماجد بغداء فاخر من أحد محلات المشويات الشهيرة.

اتكأ ماجد على ظهر كرسيه وقد امتلأ من الأكل وشبَّك يديه خلف رقبته:

– عارفين القعدة الحلوة دي كانت عاوزة مين؟ عارفين يا شباب ناقصنا مين؟

– نظر بعضهم إلى بعض، ثم هتفوا بصوت واحد يملؤه الشوق والحنين.

– صاااابر.

لحظات كأن روحه تطوف بينهم وهم يطلبون له الرحمة، وقد سرى بينهم دفء مودته، وحرارة قفشاته، وطفولة ضحكاته، وحضوره الرائع أينما يحل.

أمضى الشباب وقتًا رائعًا في ضيافة ماجد في مكتبه الجديد، واتفقوا على ترتيب اللقاء كل إجازة.

سأل خالد ماجدًا وهو يحمل أكواب الشاي بالنعناع التي صنعها لهم في المطبخ الصغير المجاور لغرفة مكتب ماجد:

– وهاتبتدي رحلاتك الأفريقية إمتى عشان تظبط صفقاتك؟

– الأسبوع الجاي بإذن الله.

– المحطة الأولى فين يا باشا؟

ابتسم ماجد ابتسامة عريضة:

– يعني، السودان، تونس، أديس أبابا، ربنا يسهل بإذن الله.

روى لهم ماجد كيف بزغت فكرة مكتب الاستيراد والتصدير، بعد جلسة جمعته بأحد أصدقاء والده رحمة الله عليه، وكيف ذلَّل له كثيرًا من النقاط اللوجستية الخاصة بالاستيراد والتصدير، وكيف أخذ بيده في طُرقات هيئة الاستثمار، وقضى الليالي في دروس حقيقية لتعيده إلى شغفٍ جديد. لم يخبرهم عن الأيام التي لم يجد فيها دافعًا ليغادر سريره، إلا ليأتنس بأشجار الصفصاف، لم يخبرهم عن الليالي التي كان يذرع فيها طُرقات نفسه يتساءل: كيف سيكمل حياته العملية وهو لا يعرف إلا أن يكون ضابطًا؟ لم يخبرهم أنه كان عليه أن يبتلع مرارة رحيل الأصدقاء، وغربة الحبيبة، ووجع الطريق.

أديس أبابا

تُشعِلين أسئلةً

عطشى للجَواب

هل زارتْكِ أطيارُ الجَوى

في إيابِها من تِلال الغِياب؟

وهل سمِعتِ همهمةَ الهوى

حين يداعبُ أشرعةَ العتاب؟

وهل تعودين يومًا

حقيقةً بين أطيافِ السراب؟

في المحطة التالية لرحلته إلى تونس، خرج ماجد من مطار أديس أبابا، في إثيوبيا ليجد " كيدوس"، السائق الذي أرسله إليه التاجرالإثيوبي الذي

تواصل معه في انتظاره، والذي طمأنه أنه يُجيد الانجليزية، شابٌّ في أواخر العشرينيات من عمره، أسمر الوجه، ممتلئ الجسد، قسمات وجهه هادئة، يحمل لوحة عليها اسم ماجد. اقترب منه ماجد وسلَّم عليه، فتناول كيدوس منه حقيبته بهدوء، بعد أن عرّفه بنفسه، ورحَّب به، وأعلمه أنه سيكون مرافقه خلال وجوده في إثيوبيا، فتح له باب السيارة قائلًا:

– مساء الخير مستر ماجد؟ هل لديك حجز مُسبق في أحد الفنادق؟

– مساء الخير كيدوس، لا.

– يمكنني أخذك إلى فندق ترينتي أو جوبيتر.

– الحقيقة يا كيدوس كنت أفكر في تأجير شقة صغيرة مؤثَّثة، سأرتاح فيها أكثر، خاصة أني سأتردَّد على مكتبكم كثيرًا خلال الفترة القادمة.

في أعماقه كان في خاطر ماجد الكثير من الآمال تجاه وجوده في إثيوبيا.

فكَّر كيدوس قليلًا، ثم أدار السيارة:

– نعم، سآخذك إلى مكانين رائعين لتختار منهما، سترتاح معنا في أديس أبابا يا سيدي، هناك العديد من الأماكن كالشقق الفندقية، أظنُّ أنها ما تبتغيه.

بعد أن استقرَّ ماجد في شقة من مجمعات الشقق الفندقية تبعد كيلومترًا واحدًا عن مركز المدينة أديس أبابا. بعد جولة في المدينة، أخذه كيدوس لتناول العشاء في أحد المطاعم، أصرَّ ماجد أن يتناول كيدوس معه طعام

العشاء بعد أن طلب منه أن يختار مطعمًا يُقدم الأكلات الشعبية الإثيوبية، حيث تناولا طبق "الدوروات" وهو الدجاج بصلصة الفلفل الأحمر، مع خبز الإنجيرا.

قضى ماجد وقتًا طيبًا مع كيدوس، الذي أوصله إلى شقته الفندقية، متمنيًا له ليلة سعيدة على أن يمر لاصطحابه غدًا لاجتماعه في مقر شركة التاجر الإثيوبي الذي حضر لمقابلته.

دخل ماجد إلى غرفته، وفتح النافذة المطلة على الحديقة، كانت النسمات لطيفة، رغم تلبُّد السماء بالغيوم في شهر يناير، ابتسم ابتسامة هزيلة:

- بيرسينّا، بعد آخر لقا .. تقريبًا عدّت أكتر من سنة، يا ترى إنتي فينك؟

ترى هل لامست وجهك تلك النسمة قبل أن تضمني؟ هل ترفعين عينيك إلى الغيوم بقلق وتختبئين في كهفك؟ يا خبيئة قلبي، أين أنت بيرسينّا الآن؟ وكيف السبيل إليك؟

كيف نسي أن يحضر معه أعواد بخور الصندل؟ كم يشتاق إليها الآن ويشتاق إلى دفء رائحتها ووهج احتراقه فيها.

كان يومه طويلًا شاقًّا، فألقى نفسه على السرير بعد أن طمأن سارة على سلامة وصوله، واطمأنَّ منها على أحوالهم في مكالمة مقتضبة، ثم أسلم جفونه بعدها للنوم استعدادًا لاجتماعات الغد.

في الصباح كان كيدوس في انتظاره، مع كوب من القهوة الإثيوبية الرائعة، وشطيرة من خبز الإمباشا الإثيوبي، شكره ماجد واستقلَّ السيارة معه إلى اجتماع الشركة الإثيوبية.

قضى ماجد أسبوعه كُلَّه في مفاوضات واتفاقات مع شركات إثيوبية لشراكات مهمة للاستيراد والتصدير، وفي المساء كان كيدوس معلمه في اللغة الإثيوبية ومرشده في زيارة المعالم السياحية في أديس أبابا، ولم ينسَ أن يحضر التذكارات لسارة وولديه من سوق أديس ميركاتو، كانت رائحة التوابل في السوق تشعل فيه حنينًا لا يهدأ لبيرسينّا، وتذوُّق الأطعمة هناك يُعيده إلى ذاكرة الجبال السود.

قبل انتهاء مدة إقامته بيومين وبعد جولة بالسيارة، قرَّر ماجد أن يستعين بصديقه الجديد كيدوس، ويطلب منه أن يصطحبه في رحلة سفاري إلى الجبال السوداء بقرب موقع السد المنهدم، كانت الأفكار تتزاحم في رأسه المُتعَب، كمن يرسم بإصبعه على صفحة الماء، يرسم أحلامًا ويخطط لآمال، لا يدري هل يطارد شهابًا أنار سماءه ثم انطفأ؟ أم يقنع ببقايا النور ويحترق ببطء مع نيرانه؟

– أها يا مستر ماجد تريد أن ترى السد المنهدم؟

– نعم، في الحقيقة يا كيدوس لا يهمني السد كثيرًا.. فقط أريد أن أسير بمحاذاة نهر النيل الأزرق بعد السد.

– مكان معين هناك يا سيدي؟

ارتبك ماجد وأخرج ورقة سجَّل عليها إحداثيات جهاز الـGPS للمكان الذي انطلق منه مع بيرسينّا في رحلة العودة. ارتعد صوت ماجد وهو يودُّ لو يفصح بمكنون صدره لكيدوس، ولكنه اكتفى بتنهيدة أشعرت كيدوس بمدى تعلّق ماجد بهذه الرحلة.

– فقط دعنا نَسِر بمحاذاة النهر والجبال السوداء، أحتاج إلى مساعدتك يا كيدوس.

أوقف كيدوس سيارته، واستدار ملتفتًا نحو ماجد ليستقرئ ملامحه ويطابقها مع ملامح صوته القلق، لعله يثنيه عن هذه الرحلة الوعرة.

– المكان بعيد من هنا، فهو قريب من الحدود السودانية، ستحتاج إلى الوصول إلى مدينة هيداسي عن طريق مطار أسوسا، وربما نضطر إلى المبيت في المدينة لتأجير سيارة لزيارة المنطقة التي ترغب في زيارتها.

– أمسك ماجد بكتف كيدوس، وهو يضغط الحروف بين شفتيه بعزم جديد.

– مهما يكلف الأمر يا كيدوس، أرجوك افعل أي شيء لتحقيق أمنيتي تلك.

زمَّ كيدوس شفتيه، ثم رفع إليه عينين مبتسمتين.

– حسنًا، سيدي دعني أُرتِّب الأمر أولًا، يمكنني أن آتي معك لترتيب الأمور لك.

تهلَّل وجه ماجد، وأراح ظهره على مقعد السيارة في سعادة.

– هذا يسعدني يا صديقي كيدوس، افعل ما تراه مناسبًا، وسأتكفل بكل التكاليف مهما تكن.

التفت كيدوس ليتأمل ملامح التصميم في وجه ماجد، قبل أن يضيف مؤكِّدًا:

– قد تحتاج لتأجيل سفرك لبعض الوقت يا سيدي.

تنهد ماجد وأردف قائلًا:

– سأهتم أنا بهذا الأمر.

عودة الروح

اتصل ماجد بسارة ليبلغها بحاجته للمكوث لبعض الوقت في أديس أبابا، وتأجيل سفره للعودة إلى مصر، كان خائفًا من أن تخونه الكلمات ويتعثر في صراحته مع سارة، أو أن تشعر هي بحدس الأنثى أن تأخير عودته بسبب الاسم الذي طالما رجته أن يحدثها عنه، كان يسير بحذرٍ بين الكلمات، ويستعير نبرةً جادة، من أيام عمله ضابطًا.

– في حاجة يا حبيبي؟ مال صوتك؟

– لا مفيش يا سارة، مخي مشغول.

– يا سارة! دي لازم حاجة كبيرة يا فندم! خير؟

ضحك ماجد رغم توتره:

– مفيش يا سو، أنا بس بجد مشغول والأسبوع كله كان تقيل قوي، بس الحمد لله أنجزت.

سكت قليلًا قبل أن يضيف:

– فاضل حاجة لازم أعملها قبل ما ارجع.

أغمضت سارة عينيها تستدعي صورته إلى أحضان عينيها قبل أن تهمس:

– وحشتني يا ميجو حبيبي.. خد بالك من نفسك يا قلبي.

– حاضر يا جميلة، خلي بالك من نفسك ومن الولاد يا قلبي.

لم يستطع ماجد النوم ليلتها وهو يفكر في بيرسينّا، تتمازج الذكريات في قلبه كأمواج تحرم عينيه النوم، وتقذفه إلى شواطئ السهاد والأرق، هل يمكن أن يكون الزمان كريمًا معه فيجدها؟ هل يمكن أن يحتفظ المكان هناك بعبقها؟ هل ما زالت في انتظاره؟ هل ينجح في الوصول إلى الصخرة التي كان يُحلِّق معها إلى آفاق ساحرة وهو يجلس بجوارها في صمت؟

كانت الأسئلة تستعر في رأسه وهو لا يحاول أن يطفئها، ولكنه يحترق معها ببطء، ويولد من جديد كطائر الفينيق الخالد.

عندما وصل كيدوس كان ماجد قد استعد، وتأهب لرحلة عودته إلى أرض الذكريات، على أمل أن يعيش لحظات خارج الزمان والمكان.

– تبدو مُنهكًا يا سيدي؟

– لم أنم جيدًا يا كيدوس، كانت ليلة ليلاء.

– ربما تصلح القهوة الإثيوبية ما أفسده الليل يا سيدي.

ركب ماجد بجوار كيدوس، وانطلقا بالسيارة إلى مطار أديس أبابا، فقد حجز كيدوس مقعدين على الطائرة في رحلتهما الداخلية إلى مطار أسوسا، ومنه ركبا سيارة أجرة ليقضيا بقية اليوم في هيداس، جلس ماجد على أحد المقاهي، واستأذن كيدوس ليرتب تأجير السيارة التي سيحتاجان إليها للذهاب في زيارة إلى السد المنهار الذي بات مَعْلَمًا يقصده الكثيرون للزيارة، ومن ثم يستأنفان رحلتهما على ضفاف النيل الأزرق.

لم يُبدِ ماجد أدنى اهتمام بزيارة بقايا السد المنهار، وأمر كيدوس بالاستمرار في القيادة، وعندما وصلا لبغيتهما بالقرب من السد، أوقف كيدوس السيارة، والتفت لماجد الذي كان يُحدق من النافذة، وقد ألصق جبهته بالزجاج.

– بعد هذه النقطة سنضطر إلى ترك السيارة هنا والسير على الأقدام، الطريق وعر يا سيدي.

فتح ماجد الباب ونزل مسرعًا، ولكنه التفت مجددًا نحو كيدوس هاتفًا:

– يمكنك البقاء في السيارة يا كيدوس أو حتى العودة إلى المدينة إن تأخرتُ.

– ترجَّل كيدوس من السيارة مسرعًا.

– لا يا سيدي، لا يمكنني أن أتركك في هذا المكان وحدك، سأبقى معك.

تعرَّج بهما الطريق ليجد ماجد نفسه قريبًا من السد المنهار، فأصابته رعشة شديدة، وأخذ يتمتم بدعوات الرحمة لصابر، كانت لحظات انفجار السد

تومض بشدة أمام عينيه، فتُربك عقله، وتضغط على أعصابه، جلس ماجد يلتقطُ أنفاسه، وقد أصابه الإعياء. اقترب منه كيدوس يتفرس في ملامح وجعه.

– لا تبدو بخير سيدي؟

وقف ماجد على قدميه من جديد، وهو يقول:

– دعنا نواصل المسير.

بعد أن انتصف النهار، وارتفعت الشمس فوق رأس ماجد، وبدأ التعب يأخذ مأخذه من كيدوس، فأبطأ في سيره، التفت إليه ماجد قائلًا في هدوء مغسول بالوهج.

– كيدوس، هناك حلم يسكنني، أتنفسه، وأعيش من أجله.

اندهش كيدوس من كلمات ماجد:

– حلم! هنا؟

– نعم يا كيدوس، حلم جئتُ أبحث عنه هنا، عند النيل الأزرق، لا أدري إن كنت سأجده، ولكن كان عليَّ المجيء لأبحث عنه، قد أجده وأسترجع نفسي، أو أمضي دونه وأبقى تائهًا داخل ذاتي للأبد.

كان كيدوس ينظر بهلع إلى ماجد الذي كان يتحدث، وقد بدأ صوته يتهدج ببكاء مرير:

– سيدي أنا معك، لن أتركك.

سار الاثنان بمحاذاة النيل، وماجد يتأمل الضفة والجبال والصخور، وكيدوس - رغم تعبه - يساند ماجدًا في خطواته، حتى أتعبهما المسير، فجلسا، وأخرج كيدوس بعض الشطائر والعصائر له ولماجد.

ابتسم ماجد رغم شروده وقال لكيدوس في امتنان:

- أنت رائع يا كيدوس، حقًّا، يبدو أنك قد استعددتَ للرحلة بشكل ممتاز.

ابتسم كيدوس وهو يقول:

- سيدي، لو رأيتَ الشغف والأسى في عينيك! لعرفتَ أنه لم يكن في إمكاني إلا أن أكون بجانبك.

أطرق ماجد وزفر زفرةً:

- منذ أكثر من سنة، وأنا لستُ على قيد الحياة يا كيدوس، وأخيرًا استعدتُ جزءًا من حياتي، ولكن يبقى هذا الحلم هو أملي في حياة حقيقية، عودة من غيبوبة البعد إلى استفاقة اللقاء.

- لا أدري سيدي، أودُّ لو تخبرني أكثر، ماذا تقصد بالحلم؟

- آه يا كيدوس، تلك الروح الطيبة التي تبعثرني وتتركني كقطع الأحجية، تبدأ وتنتهي عندها كل الأمنيات، تلك الروح الشفافة التي توغلت في قلبي، وعلَّمتني كيف يكون العشق إلى حد الذوبان، وكيف يكون الشوق إلى حد الهذيان.

همس كيدوس في ذهول:

– امرأة! هنا في الجبال.

صمت ماجد وأشاح بوجهه إلى النيل يستعيد كل لحظة من ألم الغرق وشهقات الوجع، وراحة الاحتواء وسلام السكينة.

أكمل ماجد وكيدوس وجبتهما، وتابعا المسير. كانت الشمس تسير في السماء على عجلٍ في اتجاه الغرب، عندما أمسك كيدوس بكتف ماجد، علَّه يستفيق من ملاحقة حلمه المستحيل:

– ربما علينا العودة سيدي قبل أن يحلَّ الظلام.

ردَّ ماجد بتوسُّل:

– أرجوك يا كيدوس كِدنا نصل، لا أستطيع التراجع الآن.

قبل أن تكتسي السماء بألوان الغروب الأحمر، هتف ماجد وهو يرفع يده مُشيرًا إلى صخرة في الأعلى:

– هناك يا كيدوس، سأصعد إلى هناك.

– سيدي؟ الوقت يتأخر وسيحلُّ الظلام سريعًا، المكان هنا ليس آمنًا، وعلينا العودة.

ولكن ماجد كان قد بدأ الصعود على أي حال:

– كيدوس، فقط دقائق، لا يمكنني أن أتراجع الآن.

صعد ماجد بسرعة إلى الصخرة، عندما بدأت زخات المطر تهطل، فتضيف إلى وجهه دموع الغيم بجانب دموع اشتياقه إلى رؤية بيرسينّا.

بدأ ماجد يغني أهازيجه مع بيرسينّا، وكيدوس ينظر إليه باستغراب، ثم بدأ ينادي بيرسينّا بصوت جهوري يشق السماء، والأمطار تزداد وتيرتها.

– بيرسينّا، إنتي فين؟ بيرسينّا، ارجعيلي، أرجوكي سامحيني.

جثا على ركبتيه، يتكوّر على نفسه ويدفن رأسه بين قدميه ثم يرفع رأسه في ألم وينادي بيرسينّا من جديد، وكيدوس قد جلس على الأرض في الأسفل، لاً يدري ماذا يفعل:

– بيرسينّا أنا آسف، أنا محتاجك جنبي دلوقتي، وللأبد، بيرسينّا تعالي، تعالي معايا نرجع أديس أبابا، أرجوكي.

كان يبكي كطفلٍ أضاع عالمه وفَقَدَ أمانَه. حاول كيدوس أن يصعد إليه ليهدئ من روعه لكنّه توقّف فجأة صارخًا:

– يا إلهي!

فجأة توقف ماجد عن البكاء، وسرت رعشة في جسده، ابتلع ريقه وتسارعت ضربات قلبه.

كانت رائحة بخور الصندل تتوغل في كيانه فتذيبه شوقًا إلى بيرسينّا، هو متأكد أنه لا يحمل أعواد الصندل في جيبه، لكنه لا يستطيع أن يرفع رأسه، لن يحتمل أن يصور له خياله هذه الخدعة، عندما شعر بكفَّيها تمسحان رأسه،

رفع وجهه ببطء، وقلبه يكاد ينخلع من صدره، شهق وهو يرى وجهها، وابتسامتها، وعينيها، وشوقها وحنينها ووجدها.

همس لها:

- بيرسينّا؟

جلست بجانبه، فمدَّ يده يتحسس وجهها، لثمت كفَّيه بشفتيها، فاحتضنها بقوة، وهي تربت على رأسه وتبكي، امتزجا في عِناقٍ ولعٍ وشوق، لا يصدقان كيف يمكن أن يكون الزمان كريمًا معهما فيعيدهما إلى حيث وُلد حبهما. كان المطر قد بدأ يهدأ كأن الغيمات تراقبهما وتُبارك لقاءهما. نهض ماجد، ومَدَّ لها يده، وبيرسينا تهتف في سعادة:

- ماجد، ماجد.

وتتمتم بكلماتها كصلاة شكر، وهي تراه يقف سليمًا مُعافًى بعد أن تركته بصعوبةٍ يستطيع السير بعصاه.

وقف كيدوس مذهولًا، وهو يرى بكاء ماجد يتحول إلى ضحكات وقفزات، وعِناقٍ لا ينتهي مع تلك المرأة.

سحب ماجد بيرسينّا إليه، وعانَقَها حتى اختفت في صدره، تملأ فراغًا لها منذ رحلت، حملها ماجد بين ذراعيه، وهي تتأمله وتضحك.

هبط ماجد إلى الجرف حاملًا بيرسينّا بين ذراعيه، وهي تلفُّ ذراعيها حول عُنقه وتريح رأسها على صدره، كطائر وَجَدَ عُشه أخيرًا.

تهلَّل وجه كيدوس:

- وجدتَ حلمك يا سيدي؟

ابتسم ماجد بفرح هيستيري:

- نعم، وجدت الحقيقة يا كيدوس، الحقيقة الأروع من الحلم.

فجأة تغيرت ملامح وجه كيدوس، وراح يصرخ بكلمات إثيوبية غاضبة، التفت ماجد إلى حيث يحدق كيدوس في غضب، كان الرجل يعدو مسرعًا نحوه وفي يده حربة، يبدو أنه من قبيلة بيرسينا، ربما تبعها إلى هنا، أو ربما سمع صوته ونداءاته المغسولة بالوجع، كرَّر كيدوس صُراخه في الرجل، ثم أخرج مسدسه ووجَّهه بسرعة وهو يصرخ في ماجد أن يبتعد، مرت الرصاصة بجوار أذن، ماجد فأحدثت خلخلة في أذنه، وأحس بألم شديد يمتدُّ إلى ظهره ويحرق جسده، انتفضت بيرسينّا من حضنه، واحتضنته بقوةٍ قبل أن يهوي على وجهه. أدار ماجد عُنقه ليرى كيدوس يصعد كالبرق وينزع حربة استقرت في ظهره، نزعت بيرسينّا قطعة قماش من ردائها، وضغطت على الجُرح بقوةٍ، وهي تصرخ، وجداول دمائه تروي الأرض بجواره.

حمله كيدوس، بينما كان يشعر بالنور يهرب من عينيه مع الوجع الذي يشتعل في ظهره مع كل نَفَسٍ يتنسمه، ثم صارت أنفاسه قصيرة متلاحقة، حتى غاب عن الوعي.

فتح ماجد عينيه ببطء في المستشفى، كانت الخيالات تتراقص أمامه، يدا بيرسينا تضغطان يديه ببطء لتعيده إليها، هل هذه سارة التي تقف هناك؟

تبدو شاحبة كوجه الشتاء، أمُّه تبكي بهدوء كعادتها على الكرسي المجاور.. الجبال السوداء تبدو واضحة أمامه، والصخرة التي اعتاد أن يجلس عليها مع بيرسينا ترتفع عند حافة السرير، صابر يجلس في ركن الغرفة بابتسامته المشرقة.. أشجار الصفصاف تعطي حميمية للغرفة، وكل الأشياء تقترب وتلقي ظلالها على عقله المشوش ثم ترحل ببطء.

أغمض ماجد عينيه من جديد، وتنسَّم عِطر الصندل.

النهاية